سعد عبدالله الغريبي

# وطن الحب

رواية

(1)

اسمي سلمان الخاسر!.. يقال إني سليل أسرة الشاعر العباسي سلم الخاسر. وإن كان مصنفو كتب الأدب قديما قد اختلفوا في سبب تسميته بالخاسر فقد أجد لنفسي سببا لتسمية أسرتنا بالخاسر، فالخسارة تجري في أصولنا بالوراثة. فقد خسر جدي تجارته وهو عائد من الهند في مركب متهالك كالذي يستخدمه اليوم مهربو البشر من سواحل إفريقيا للفردوس الأوروبي الموعود، ووالدي خسر ثروته كلها في يوم الأسهم الأسود سنة 2006. وكنت أظن أني بعيد عن الخسارة فلم أرث عن والدي بعد وفاته إلا الديون التي عجزت - أنا وإخوتي - عن سدادها بعد أن توفي مدينا إثر تلك الكارثة. كنت أظن الخسارة لا تتأتى إلا في المال، ولأني لا مال عندي فأنا في مأمن من الخسارة، وغاب عن ذهني أن الشاعر سلما الخاسر - جدي المفترض - سمي الخاسر لأنه باع المصحف الذي ورثه عن أبيه بآلة لهو تعرف بـ (الطنبور) أو بدفتر شعر - على اختلاف بين مؤرخي الأدب - أي أنه خسر معنويا لا ماديا، وهأنذا - مثله - أخسر قيمتي المعنوية وسمعتي، فضلا عن ثروتي التي عشت على وهم انتظارها عاما كاملا.

هأنذا أعيش مؤقتا في جزيرة صغيرة هربت إليها من نظرات الناس وكلامهم.. الناس ابتداء من إخوتي الذين صدقوا أني يمكن أن أقدم على ما اتهمت به. . ومن زملائي الذين صاروا ينظرون لي شزرا ولسان حالهم يقول: هذا الذي أراد احتراف الأدب.. انظروا إلى قلة الأدب الذي أنتجه!. وهربا حتى من خصمي الذي خدعني بعد أن وثقت فيه ووقعت على الأوراق وسلمته نفسي بعد أن فرش لي الأرض ذهبا. والغريب أن يثري على حسابي ولا أستطيع ملاحقته قضائيا لأن كسبي للقضية سيدينني أخلاقيا ويثبت علي التهمة التي أحاول دفعها عني، والسمعة خير من المال. هكذا قالوا ولم أصدق من قبل. الآن أرفع صوتي عاليا في أذن الكون: نعم السمعة أهم من المال وخسارتها أنكى.. الخسارة المادية قد تقودك إلى السجن لعجزك عن السداد إلى أن يستطيع ذووك التسديد عنك أو الحصول على صك إعسار فيدفع عنك الموسرون أو الحكومة ويطلق سراحك.

هربت ولكنه هرب مؤقت سأعود بعده لمواجهة الناس من جديد، ولن ينسوا ما صنعت مهما غبت لكني في حاجة الآن لمكان أختبئ فيه لا يعرفه أحد ولا يستطيع أحد العثور عليّ على الأقل حتى أستريح من المعمعة التي خرجت منها، أو على الأصح

هربت منها.. ومن حسن حظي العاثر دائما أني قبل ستة أشهر حجزت مكاني في هذه الجزيرة وكأني أعلم مدى حاجتي إليها في هذا الوقت بالذات!..

جئت إلى هذه الجزيرة الجميلة.. الجميلة للغاية والنظيفة إلى حد يفوق الوصف، ولو كان بإمكاني قضاء ما تبقى من عمري فيها لما ترددت، لكنها لا تمنحني إقامة لأكثر من أيام معدودات، وهي مكلفة جدا على واحد تجري الخسارة في عروقه بالوراثة حتى جدي الأكبر سلم الخاسر عفا الله عنه!

جزيرتي تعج فيها كل ألوان الحياة وتحيطها المياه من كل اتجاه.. لكنها بلا شواطئ ولا رمال.. ولا سهول ولا جبال.. جزيرتي مدينة جميلة وصغيرة تكفي ساعتان للمرور بشوارعها واحدا واحدا، ويكفي يوم للمرور بمقاهيها ومطاعمها.

والناس هنا لا يعملون لكنهم لا وقت عندهم، فالكل عن صاحبه مشغول.. سكان هذه الجزيرة يستيقظون كل يوم مع إشراقة الشمس يحتسون القهوة السمراء، وقد يضيفون إليها الحليب لتغيير لونها، ويتناولون إفطارهم بشهية مفتوحة.. وبعد ذلك يتفرغون لممارسة رياضاتهم المفضلة من جري وسباحة وتمارين سويدية وكرة سلة وبلياردو وتنس طاولة..

حتى إذا توسطت الشمس من السماء هرعوا إلى المشارب يحتسون ما شاؤوا من أكواب وأقداح من كل ما يعدل أمزجتهم. وفي الظهيرة ينتشرون على المسابح كطيور الإوز!

وفي المساء يبدؤون سهراتهم بالعشاء وارتياد المسارح ودور السينما والمراقص والسيرك، ومنهم عدد غير قليل يذهب إلى الحي السادس حيث أندية القمار تفتح أبوابها حتى الصباح.

أرأيتم كيف أن سكان هذه الجزيرة مشغولون.. مشغولون دائما!

وزيادة في الترف يقومون برحلات سياحية شبه يومية للشواطئ المجاورة لهم، فهم محرومون من الشواطئ مع أن الماء يحيط بجزيرتهم من كل اتجاه!

في هذه الجزيرة تجد طبقات الأثرياء والنبلاء الذين لهم أحياؤهم الخاصة ومطاعمهم وملاهيهم، وفيها طبقة العامة الذين لهم ما تبقى من الجزيرة، فكلٌّ على قدر بساطه يمد رجليه، وعلى قدر ما في بطاقته الائتمانية يتم تقييمه!

سكان هذه الجزيرة قادمون من كل أنحاء الكون لكنهم لا يبقون فيها طويلا؛ ليس مللا منها لكن لأن نظام الجزيرة لا يسمح لهم بالإقامة أكثر من أيام معدودات، وحتى لو أرادوا فلن تسمح إمكاناتهم المادية بذلك!

هؤلاء الخليط من السكان مختلفون في طباعهم وفي عاداتهم وفي أحلامهم وفي أديانهم، لكنهم متآلفون يحيّي بعضهم بعضا عندما تلتقي الأعين، ولا يغفل عن رد السلام إلا من كان مشغولا بشيء من شواغله الخاصة!.. سكان الجزيرة لا يناقشون الاقتصاد ولا السياسة ولا الحروب ولا الدين.. كل ما يفعلون هو تأمل البحر والجبال المحيطة أو السفن العابرة والنوارس.

في هذه الجزيرة حي للعزاب.. والعزاب - كما قرأت قبل مجيئي إلى هنا وفي المنتدى الإلكتروني للجزيرة - ليس شرطا أن يكونوا لم يتزوجوا من قبل، فقد يكون أحدهم مطلقا أو أيما أو أرمل، وقد يكون هاربا من شريك عمره، أو راغبا في التمتع بإجازة اعتيادية أو اضطرارية من علاقته الأسرية. والكل من العزاب مرحب بهم بل لهم ناد لا يدخله غيرهم، وقد حددت لهم ساعة في المساء للقاء والتعارف. أرأيتم أعجب من هذه المدينة؟!

أما سكان هذه الجزيرة الأصليون فهم من يقوم بضيافة القادمين إليها على اختلاف مراتبهم ووظائفهم، فهناك موظفو الجمارك وتدقيق الجوازات، وهناك مسؤولو السكن ومسؤولو الإعاشة ومسؤولو الترفيه وطواقم الحراسة والنظافة والصيانة. كلهم دقيقون في أعمالهم حريصون على تنفيذها بكل دقة..

ابتسامتهم لا تفارق شفاههم.. لا ينقطع ترحيبهم لأن كل الوافدين على الجزيرة ذوو إقامة مؤقتة، فهم ضيوف حقيقيون..

تصورت أن هذه الجزيرة هي أفضل مكان للخلوة بالنفس ولإعادة ترتيب الأوراق؛ خاصة لمن هو مثلي وفي ظروفي التي لا تشبه ظروف أحد غيري؛ خاصة أن الاتصال فيها غير متوفر للعامة.. لكن هل حققت ما أردت؟! لقد استمتعت بالرحلة استمتاعا لا حد له وانخرطت في جو اجتماعي مثالي، وضاع وقتي سدى كما تضيع أوقات كل زوار هذه الجزيرة، لكني غادرتها وأنا لم أصل إلى قرار!

* * *

(2)

بعد وصولي صباح اليوم من مطار الملك خالد الدولي بالرياض انقضت ساعتا الانتظار في مطار الملكة علياء بالعاصمة الأردنية عمّان، ونودي على رحلتنا المتجهة إلى برشلونة على متن الطائرة الملكية الأردنية. كانت شمس الخريف قد بسطت أشعتها في الكون وامتلأ ضياء ودفئا، لكننا في داخل المقصورة نتعرض للسعات البرد الذي تبثه فتحات التكييف.. الطائرة ليست ممتلئة بالركاب فشهر أكتوبر ليس وقت عطلات ولا موسم سياحة لا في الأردن ولا في إسبانيا، يبدو ذلك واضحا من أعمار المسافرين، فلم ألحظ وجودا لشباب أو فتيات في سن المدرسة..

المسافرون الأردنيون يبدو عليهم اليسار فهم إما مقيمون يعملون في إسبانيا أو رجال أعمال، أو عرسان في طريقهم لقضاء شهر العسل.. يبدو ذلك من هدوئهم ورقي تعاملهم وانخفاض أصواتهم وهم يتحدثون فيما بينهم، أو وهم يستدعون الملاحين ويملون عليهم طلباتهم.. الصغار هم الذين بدأت أصواتهم تعلو وصياحهم يتردد فقد تنبهوا من نومهم عند اهتزاز الطائرة وهي تتحرك فوق المدرج ثم وهي تدوي بصوتها المجلجل وتمخر عباب الأفق في وضع شبه رأسي. حتى عندما حللنا أربطة المقاعد

وبدأت المضيفات يدفعن العربات المحملات بطعام الإفطار بدأ الأطفال يملون على آبائهم وأمهاتهم رغباتهم الخاصة، ويرفضون ما يقدم لهم من طعام.

أجلس في مقعدي إلى يميني النافذة وإلى يساري مقعد خال ثم المقعد المجاور للممر احتله رجل تبدو عليه ملامح مواطني جنوب شرق آسيا، ذو وجه صغير مستدير وشارب محفوف ولحية محلوقة بعناية.. منذ أن ربط حزامه وهو مستغرق في التفكير وكأن به مثل ما بي.. وقفت المضيفة تقدم لنا طعام الإفطار وتسألنا عن مشروبنا المفضل، وبحكم أنه أقرب مني للمضيفة فقد ساعدها في إيصال صينية طعامي إليّ، ثم في إيصال كأس عصير البرتقال غير الطازج.

شكرته على صنيعه وكأنها كانت إشارة البدء للحديث، وفي رحلة مثل هذه تستغرق خمس ساعات كان لا بد من الحديث، فالصمت يزيد من طول المسافة. أردت أن أبدأ الحديث فسألته: يبدو أنك متعب. لعلك قادم من مكان بعيد؟.

وكأنما كان ينتظر أن أبدأ الحوار.

- نعم. قدمت من جاكرتا إلى جدة ليلة البارحة، ومن جدة إلى عمان فجر اليوم.

- وماذا تفعل في برشلونة؟

- أنا أقيم في جزيرة إبيزا Ibiza في البحر المتوسط.

- وما تفعل هناك؟

- أعمل منذ سنوات في منتجع سياحي، وتحديدا في مطعمه الآسيوي. وماذا عنك؟ هل أنت ذاهب للسياحة؟

- نعم.

- هل أنت أردني؟

- لا. أنا سعودي من جدة لكني أعيش في الرياض.

- أنا إندونيسي من مدينة صغيرة اسمها بوجور Bojor بالقرب من العاصمة جاكرتا. وأنا سعيد بوجودك رفيقا لرحلتي. الإندونيسيون يحبون أرض الحرمين وأهلها.

- شكرا يا.. نسيت أن أسألك عن اسمك؟.

- أنا حسن.

- تشرفت يا حسن.. أنا سلمان.. ويسعدني التعرف عليك والحديث معك.

عادت المضيفة لتأخذ صواني الإفطار، وتقدم لي القهوة ولحسن الشاي.

قلت لمجاوري: لعلك استمتعت بإجازتك في بلدك، وعدت بعد أن اطمأننت على أسرتك؟

وانطلقت منه آهة وكأنني استدعيت كل ذكرياته بسؤالي، فبدا عليه الانزعاج. ظننته حزنا على فراق أهله، فقلت له: أنا آسف يا حسن.. يبدو أنك غير مرتاح لفراق أحبتك.

- لا. بل سعيد لفراقهم، لكني حزين لتضحيتي من أجلهم! لقد خابت ظنوني، وهأنذا أعود لأستدرك ما فاتني، ولأبدأ حياة جديدة في بلد كنت أظنه محطة مؤقتة.. أليس صعبا أن تجعل من محطة العبور وطنا لك؟!

عرفت أن حسن يخفي وراءه حكاية مؤثرة.. قلت له: أنا آسف مرة أخرى يا حسن لقد أثرت شجونك.

- لا عليك، واسمح لي - إن أردت - أن أحكي لك قصتي وسر حيرتي بين القلق والسعادة، وبين الخوف والأمل.

- تفضل.

***

(3)

كنت أعمل مع شقيقتي الكبرى في منتجع في ضواحي جاكرتا في منطقة (أنشول) Ancol تعرفت خلال عملي بسياح إسبان زينوا لي العمل في إسبانيا خاصة في المناطق السياحية، واقترحوا عليّ الجزر مثل (إبيزا) أو (بالما دي مايوركا). تشجعت للسفر إلى إسبانيا والعمل فيها لكن رعايتي لأمي في مرضها كان هو العائق، وبعد أن توفيتْ وجدت الرغبة في السفر تلح علي، وتذكرت حديثي مع الإسبان. كان هدفي من الغربة تحسين وضعي المالي فعملت بجد واجتهاد منذ وصولي إلى برشلونة حتى استقر بي المقام في منتجع سياحي راق في جزيرة إبيزا فعملت نادلا في مطعمه، وقد أتاح لي هذا الموقع لقاء العديد من زملائي العاملين من مختلف الجنسيات، وكذلك التحدث مع الكثير من الضيوف من مختلف الفئات والجنسيات، وأتقنت التحدث باللغة الإسبانية، بالإضافة إلى معرفتي للغة الإنجليزية من قبل..

مرت بي السنوات وتذكرت أني شارفت على الأربعين من العمر، وأن ديني لا يكتمل إلا بأداء فريضة الإسلام ثم بالزواج؛ وبخاصة أني قد جمعت من المال ما يكفي للمهمتين معا.. القيام برحلة العمر؛ الحج إلى بيت الله والسلام على سيدي رسول الله،

ثم الزواج.. ثم فكرت بالزواج قبل الحج وأن نقضي شهر العسل في رحلة الحج فلن نجد - أنا وزوجتي - أفضل منها رحلة..

أرسلت قبل بضعة أشهر لشقيقتي الكبرى - التي أصبحت بمثابة والدتي - أخبرها بما عزمت عليه لتبحث لي عن عروس، وأعلمتها أننا سنحج معا بعد الزواج، وبت أنتظر جواب شقيقتي حتى أقدم استقالتي من عملي..

تأخرت شقيقتي في الرد عليّ، فقلت في نفسي لعلها ما زالت تبحث لي عن زوجة، أو أنها لم تعبأ بطلبي لأنها لم تأخذ موضوع عودتي موضع الجد، ولم أكترث لذلك فأنا واثق أنني سأجد زوجة مناسبة متى عدت، فقد كونت نفسي وجمعت مالا كافيا لبناء حياة زوجية سعيدة. قدمت استقالتي وأخذت مستحقاتي كاملة، وعدت إلى جاكرتا قبل أسبوعين من الآن!.

قاطعته وقلت: قبل أسبوعين؟! هذا يعني أنك تعود قبل أن تحقق شيئا مما خططت له!

- نعم. سأكمل لك الحكاية. وصلت إلى (جاكرتا) ومنها إلى (بوجور) وبعد يوم أو يومين نفضت فيهما عني غبار السفر، وارتحت من وعثائه انفردت بشقيقتي وسألتها عما تم بخصوص موضوعي. هل وجدتِ لي العروس المناسبة؟

غمغمت شقيقتي قبل أن تجيبني: إن كل فتيات إندونيسيا يتمنين واحدا في نجاحي وثروتي، لكن المشكلة ليست في هذا!

- أين المشكلة إذن؟

- المشكلة أن مفتي قريتنا كان يحاضر قبل أيام من دخول رمضان، ونصح المصلين بأن ينقوا أموالهم من كل شائبة، وأن يتأكدوا من طهارة أموالهم قبل أن يدفعوها للزكاة أو لتفطير الصائمين أو لحج بيت الله.

- وما علاقة المفتي بعروستي؟

- سألت المفتي لأني أعرف أنك ممن يحتاج إلى تنقية ماله، فأنت تعمل مع الكفار في المشارب، وتقدم المشروبات المحرمة للزبائن؛ وبالتالي فدخلك ليس نقيا، ولا يجوز لك الزواج منه ولا الحج!

كدت أصعق حين سمعت هذا الكلام من أختي التي تركتها تعمل خادمة في أحد منتجعات شاطئ (أنكول)، وكل مرتادي هذا المنتجع من الذين ينطبق عليهم لقب عصاة إن لم يكونوا كفارا!

وسألت شقيقتي: أما زلتِ تعملين في المنتجع نفسه؟

- لا. الآن أصبح لدي مطعم صغير ملحق ببيتي أكسب منه رزقا حلالا..

وامتدت نظرتي إلى ركن في الغرفة فوجدت الهدايا التي أحضرتها لها ما زالت في أكياسها لم تحل!

وتوقعت الجواب قبل السؤال لكني غامرت بطرح سؤالي: أراك لم تحلي وثاق أكياس الهدايا، ولم تقولي رأيك فيها؟

تلعثمت شقيقتي قبل أن تقول لي: لا حاجة لنا بها!

قلت لها بغضب: متى صارت إندونيسيا متدينة إلى هذا الحد؟ ومتى صارت تدقق في مصدر المال؟

حين تجولت في صباح الغد في قريتنا وجدت الناس – حتى الذين أعرفهم - غرباء عني.. لقيت الكثير من أصدقائي وجيراني القدامى وقد تغيرت سحناتهم وطباعهم وأخلاقهم.. أصبحوا أقل إقبالا على النكتة والطرفة.. طالت لحاهم المتناثرة وتجهمت وجوههم..

كان في ذهني سؤال لكني لم أستطع التصريح به لأحد: عسى ألا يكون (الدواعش) أو (طالبان) قد وصلوا إلى قريتنا؟!

توجهت مباشرة إلى مكتب سياحي وحجزت رحلة عودتي في أقرب وقت، فلم تعد هذه بلدي التي كنت أعرف! وهأنذا أعود إلى جزيرتي الحالمة؛ إلى (إبيزا) لأقضي ما تبقى لي من حياة فيها وأنا الذي كنت أظن خروجي منها نهائيا. ولحسن حظي فإن إقامتي في إسبانيا ما زالت سارية المفعول.

قلت له: لعل الله أراد لك خيرا من بلدك. وكما يقول مثلنا الدارج "بلدتك التي ترزق فيها وليست التي تولد فيها". لكني أراك استعجلت.. فما دمت عدت إلى بلدك أما كان الأجدر بك أن تبحث بنفسك عن زوجة لك؟ أو توصي أحد أصدقائك أو معارفك يبحث لك عن طريق زوجته؟

- بلى. كان بالإمكان حتى من غير قريتنا، لكني كرهت إندونيسيا وأهلها.

- وهل ستجد مكانك شاغرا في المنتجع الذي كنت تعمل فيه؟

- سأجد فيه أو في غيره. هذه ليست المشكلة.

- ما المشكلة إذن؟

- المشكلة أن لي زميلة إمريكية جنوبية أكملت تعليمها في برشلونة تعمل معي في المطعم نفسه أحببتها وأحبتني، وكنا على

وشك أن نعلن زواجنا لولا أن نفسي اللوامة تنبهت ذات يوم فوجدتني أدوس على قلبي، وأعلن لحبيبتي ما نويت عليه من العودة إلى بلدي عودة نهائية.

وتوقف برهة وأضاف: بأي وجه سأعود إليها الآن؟

قلت وقد اعترتني الدهشة بدلا من الإشفاق الذي كان مسيطرا علي: بوجه الحب يا حسن!

وأردت أن أسري عنه - ولعلي لم أفعل العكس - فقلت له: الآن فهمت سر زهدك في بلادك واستعجالك العودة إلى إسبانيا!..

- وهل تراها ستقبل أن نعيد المياه إلى مجاريها؟!

- وما الذي يجعلك غير متأكد؟

- لأنني منذ أن قررت العودة إلى إسبانيا تغيرتْ عليّ حتى إنها لم تودعني، وأقفلت هاتفها أو غيرته حتى لا أتمكن من الاتصال بها!

قلت في نفسي: سامحك الله يا مفتي (بوجور) ألم تجد مخرجا لحسن حتى يتزوج من بنت بلدته ويستقر فيها؟!

***

(4)

لي في برشلونة ذكريات جميلة فقد تألفتها منذ ولعي بالرحلات السياحية، ولذا حرصت على قضاء ليلتي الوحيدة في شارع الرامبلسRambles الذي أعرفه رصيفا رصيفا ومبنى مبنى وشجرة شجرة. وصلت بعد الظهر، ومع أني كنت في حاجة للنوم والراحة بعد رحلتي الطويلة إلا أني فضلت التجوال في برشلونة وزيارة الأماكن التي حُفرت في ذاكرتي على مر السنوات، لا سيما أنني سأغادرها في الغد.. لقد اعتدت على أن أقترض من ساعات النوم من أجل أية متعة، وأية متعة أعظم من أن أتجول في شوارع برشلونة بعد هذه السنوات الطوال من الغياب؟!..

خرجت من بيت الضيافة guest house الذي اتخذته سكنا؛ الواقع في منتصف شارع الرامبلس، وأخذت طريقي غربا إلى ميدان (كاتالونيا) Catalonia كنت أخشى من هيجان الشارع والاضطرابات وإغلاق الطرقات بعد الأخبار التي ملأت سمع المشاهدين وبصرهم في القنوات التلفازية على إثر الاستفتاء الذي أجراه أهالي إقليم كاتالونيا على الانفصال عن الجسم الإسباني.

وصلت إلى الميدان فوجدته هادئا مطمئنا ووجدت الحمام الآمن - كما عهدته - يحط في الساحة يلتقط الحَبَّ الذي يقدمه المرتادون بكل حُب لأسرابه فيجازيهم بالحط على أكتافهم فترة تكفي لالتقاط الصور التذكارية. مشيت في الجانب الآخر وإذ بالفندق المطل على الساحة، الذي كنت أسكنه في زياراتي السابقة لبرشلونة لم يتغير فيه شيء غير نجمة أضيفت إلى لوحة مدخله فصار ذا أربع نجوم بدلا من ثلاث!..

عدت أدراجي عبر شارع الرامبلس أتفحص بلاطات الأرصفة وأشعر أنها هي نفسها التي كنت أعرفها قبل ثلاثين عاما. أنظر إلى المقاهي وكراسيها التي انتشرت على الرصيف الواسع الذي يفصل بين مساري الشارع لم يتغير شيء منذ عهدي بها، حتى الباعة المتجولون والعازفون على الآلات الموسيقية والرسامون على الأرصفة ورسامو البورترية للسائحين، وبائعو التذكارات كأنهم هم من عرفت ذلك الوقت!.

مررت بأقدم سوق للخضار في أوروبا Mercat de la Bouqueria الذي لا يخلو من البضائع الشعبية بالإضافة إلى اللحوم والأسماك والخضروات والفواكه. دخلت السوق وتجولت فيه فبدا لي كأنه الذي كنت أرتاده آنذاك، حتى البائعون والبائعات خيل إلي أنهم - هم - من رأيت من قبل.

خرجت من السوق ومررت بطريقي بممر ضيق يقع عليه متحف الشمع Museo de Cera ثم خرجت إلى الساحة الشاسعة في نهاية شارع الرامبلس، وتوقفت عند تمثال كريستوفر كولومبوس مكتشف الإمريكيتين Mirador de Colom مع مئات السائحين الذين تحلقوا حوله وأخذوا يلتقطون الصور التذكارية له.. هذا التمثال الذي أقيم تكريما لدور البحار الإيطالي كولمبوس في اكتشاف العالم الجديد، وما زال شامخا منذ إنشائه قبل مائة وثلاثين عاما. خشيت أن يكون التمثال قد تعرض لأذى لأن هناك مجموعة مناهضة للرأسمالية من أعضاء مجلس مدينة برشلونة يطالبون بتقويض التمثال أو إبعاده عن برشلونة، بل ويطالبون بوقف الاحتفالات بالبحار الإيطالي كولومبوس لإيمانهم بأن دوره في اكتشاف الأمريكيتين كان سببا رئيسا في ترسيخ الاضطهاد وإبادة الهنود الحمر بأمريكا، رافضين وجود ما يذكرهم بهذا التاريخ، ومنادين بتغيير الصورة المأخوذة عن كولومبوس ونعته بالرجل العظيم!..

واتجهت بعد ذلك صوب الميناء الذي سأنطلق منه إلى جزيرتي العائمة مساء الغد، ووقفت أمامه لحظات وكأني أريد أن أشعر رصيف الميناء بوجودي واستعدادي للرحلة!

ما ذا بقي من معالم برشلونة المهمة؟ - أو بعبارة أكثر دقة - التي تهمني!.. نبهتني الشمس التي بدأت في الاختفاء خلف تلال برشلونة الغربية إلى النافورة الموسيقية Magic Fountain التي كانت حدثا فريدا أول ما شاهدتها في أولى زياراتي للمدينة.. ركبت المترو من محطة Drassanes ونزلت بعد محطتين في محطة Espanya حل المساء وتذكرت أني لم أتناول طعام الغداء بعد.. وجدت مطعما اصطفت طاولاته على الرصيف، كعادة الإسبان في استغلال مساحات أرصفتهم، فالرصيف هنا جزء من العقار بالنسبة لصاحب العقار ومن يستأجره، وصديق حميم للسائح.. اتخذت طاولتي وطلبت الطبق الإسباني الشهير الـ (بائيا) La Paella الذي كان يوما ما طعام الفقراء في الأندلس المفقود!..

ومضيت متجها إلى النافورة المبهرة وانتظرت مع المنتظرين، وما إن وهجت أضواؤها وصدحت موسيقاها إلا وانطلقت حناجر المشاهدين من مقيمين وسائحين، واهتزت أجسامهم تتراقص مع تراقص المياه، وتهتز مع اهتزاز الموسيقى.. نسيت تماما كل ما هربت منه وكل ما سبب لي ما أنا فيه من قلق، فلا مكان هنا إلا للحب ولا مكان إلا للحياة.. تذكرت حسن مجاوري في الطائرة ليلة البارحة وتخيلته في أحضان حبيبته الإمريكية الإسبانية، لكني سرعان ما تذكرت أن كرامتها قد تنتصر على حبها!

قفز إلى ذهني سؤال: أيعقل أن تكون هذه الإمريكية الكاثوليكية أكثر رأفة بحسن من بنات بلده؛ بل ومن شقيقته؟ كيف أمكن لرجل من أقصى آسيا وامرأة من أقصى أمريكا أن يتفقا مع كل هذا التناقض في كل شيء؟. فالمسافة بين بلديهما تحتاج إلى يوم كامل من السفر بالطائرات النفاثة، والاختلاف في الديانة ليس بالأمر الهين، فالكنيسة الكاثوليكية ليست أقل تشددا من قرية حسن الإندونيسية رغم ما يبدو في الظاهر من التسامح.

عدت إلى فندقي ممنيا نفسي بنوم لذيذ مبكر يزيل عني تعب الجسم، أما تعب الفكر والنفس فيبدو أنه يحتاج إلى وقت. حين نزلت في محطة مترو Liceu وخرجت من النفق إلى شارع الرامبلس وجدت الشارع كما عرفته قبل عقود؛ شارعا لا ينام ولا يهدأ - لا سيما والوقت مساء السبت - فقد تضاعف عدد الذين كانوا يذرعون أرصفته عصرا، وازدحمت أرصفته وحاناته ومقاهيه ومطاعمه، وأصبح الزبائن يضطرون للانتظار قليلا حتى تشغر طاولة في مطعم أو حانة..

صعدت لغرفتي.. كانت غرفتي مطلة على الشارع. لم ألم أحدا، فأنا الذي اخترت - عند الحجز - أن تكون غرفتي مطلة على الشارع الصاخب.كان منظر الشارع مبهجا ومغريا بقضاء

الساعات الطوال متجولا في ممراته، أو قابعا على كرسي في أحد أرصفته، متأملا هذه الأمواج البشرية المختلفة الأشكال واللغات.. ارتديت معطفي تحسبا لليل الخريفي، وسرعان ما نزلت إلى الشارع مضيفا إلى آلاف المتسكعين واحدا!..

عدت بعد منتصف الليل، وعلى الرغم من الضوضاء إلا أن النوم عرف كيف يتسلل إلى جفني فلم أفق إلا مع انبلاج الصباح!

تناولت إفطاري في مطعم قريب من الفندق.. ولأنه ما زال معي متسع من الوقت أخذت جولة في شارع الرامبلس، أنظر في واجهات المحلات لعلها تذكرني بما قد أكون نسيته مما أحتاج إليه قبل الشروع في رحلتي.. دخلت أحد المحلات وابتعت قبعة، فحتما سأحتاجها حتى وإن كنت في فصل الخريف .

***

(5)

وصلت إلى ميناء برشلونة Moll de Barcelona وأخذت طريقي إلى الرصيف، وانتظرت إلى أن بدأ استقبال الركاب عند الثانية عشرة ظهرا فكنت من أوائل الذين سجلوا وصولهم وسلموا أمتعتهم وأخذوا مفاتيح غرفهم. اتجهت إلى الاستوديو الذي حجزته أرحت كتفي من حقيبتي الصغيرة وانطلقت لاستكشاف جزيرتي!

جزيرتي هذه اسمها (إيبيك) Epic وهي باخرة عملاقة تتبع لشركة Norwegian Cruise Line تتألف من ثمانية عشر طابقا ويبلغ عدد سكانها الدائمين والمؤقتين أكثر من أربعة آلاف. ولم أعدُ الحقيقة حين قلت إنها جزيرة تحيطها المياه من كل الأنحاء لكنها بلا شواطئ.

فيها أكثر من ثلاثين مطعما ومقهى. من هذه المطاعم مطاعم على نظام البوفيه المفتوح، ومنها مطاعم على نظام الاختيار من قائمة الطعام ala cart منها ماهو متاح لجميع الركاب، إذ يشمل سعر تذكرة الرحلة تناول الوجبات فيها، وهناك مطاعم خاصة غالبا ما تحتاج إلى حجز مسبق، وهي غير مشمولة في سعر الرحلة.

يتوسط الطابق السادس منطقة واسعة هي بمثابة الاستقبال في الفنادق الكبيرة ففي الجهة المقابلة مكتب الاستقبال والمحاسبة وفي ركن مجاور المكتب المختص بتنظيم الرحلات السياحية للموانئ التي تتوقف فيها الباخرة. ومع أن معظم المسافرين يحجزون رحلاتهم مبكرا مع حجز الرحلة إلا أن كثيرا منهم يحتاج المكتب للاستفسار أو للتعديل. وفي نهاية الصالة الفسيحة توجد معارض الفن التشكيلي والتصوير الفوتوغرافي. وفي وسط الساحة مقاعد مبثوثة مواجهة لشاشة كبيرة تعرض إعلانات المبيعات والخدمات على متن الباخرة، كما تعرض الأنشطة وتذكر بقرب أوانها. وعلى يمين الممر الموصل لهذه المساحة يمتد مقهى (أوتريوم) Auturium وهو المكان المفضل للنزلاء بحكم موقعه، ولذا فهو مزدحم دائما..

وعلى الرغم من الإرهاق الذي يكاد يحطم رأسي فقد استمتعت بنهاري الأول في هذه الجزيرة، فبعد وصولي مباشرة تناولت غدائي في مطعم الحديقة Garden Café على نظام البوفيه المفتوح، وقمت بجولة بعد الغداء على معظم أنحاء الجزيرة وتعرفت على بعض المواقع.

في الخامسة مساء صعدت إلى الطابق الخامس عشر حيث المنطقة المائية Aqua Park واتجهت إلى الركن المخصص

للشاي والقهوة بنظام الخدمة الذاتية فأعددت لنفسي كأسا من الشاي، واتخذت كرسيا في طاولة مشتركة مع عدد من السائحين.

وفي السادسة مساء أبحرت إيبك من الميناء.. كان معظم الركاب في هذا الطابق وفي الطابق الذي يعلوه؛ وهو سطح الباخرة The Deck يراقبون تحرك الباخرة بابتهاج شديد وبفرح عارم. لا أحد يحب السكون ففي الحركة تبصر ما لا تبصره عند التوقف. وابتدأ مع تحرك الباخرة حفل الاستقبال بحضور (الكابتن) ومساعديه، ثم عرض لوسائل السلامة وأهم التعليمات.

الباخرة تتجه إلى (نابولي) Napoli وستصل إليها بعد ست وثلاثين ساعة وهذه مدة كافية لاستكشاف مدينتي العائمة. في المساء تناولت طعام العشاء في مطعم O'Sheehan's ثم خرجت متنقلا دون وجهة معينة حتى سمعت إعلانا عن مسرحية هزلية فتوجهت إليها، فكم كنت محتاجا إلى ما يخرجني من حالة الجد التي تمر بي. من الصعب جدا أن تختار من بين الأنشطة الكثيرة المتعددة في هذه الجزيرة دون تخطيط؛ على الرغم من أن النشرة اليومية للباخرة تعينك على الترتيب لحضور ما تشاء من فعاليات، لكن الصدفة قد تقودك أحيانا لأجمل من المخطط له!

شعرت براحة غير اعتيادية لم أتوقع أن أجدها بهذه السهولة، وشعرت أنه لن ينتهي الأسبوع الذي قررت قضاءه إلا وقد تعافيت مما أنا فيه، واستقر رأيي على ما سأقدم عليه..

استيقظت باكرا أكثر نشاطا وحيوية، وزادت حيويتي حين ذهبت إلى مضمار المشي ومشيت فيه أكثر من نصف ساعة قبل أن أتناول إفطاري..

***

(6)

في التاسعة صباحا قادتني خطواتي إلى مقهى الأمواج Waves Pool Café وهو مقهى وحانة بالقرب من بركة السباحة يتألف من صف من الكراسي ذات الساق الواحدة في مواجهة قناني المشروبات المصفوفة بأشكال مختلفة، وفي داخل المشرب يتأهب عدد من النادلين والنادلات لخدمة الزبائن الذين لم يصلوا بعد! وأمام المقهى/ الحانة ساحة فسيحة وزعت فيها مقاعد وطاولات تحميها من الشمس مظلات ذات ألوان زاهية. وقفت على (الكاونتر) بالقرب من الآلة الحاسبة فبادرتني فتاة شقراء من العاملات بالمقهى بالتحية المصحوبة بابتسامة وانحناءة خفيفة.. لمحت اسمها من البطاقة المعلقة على الجزء العلوي الأيسر من قميصها الأبيض Merna سألتني ماذا أريد؟ طلبت فنجانا من القهوة التركية مع قدر قليل من السكر، وانتظرت قليلا حتى أعدت لي فنجاني.. شكرتها وحملت فنجاني أبحث عن مكان للجلوس في الساحة المقابلة. وجدت معظم المقاعد خالية إلا من نفر قليل تفرقوا في أرجاء المكان فلم يزل المسافرون – أو النزلاء – لم يتنبهوا من نومهم ولذا كان المكان هادئا جدا.. اتخذت مقعدا غير بعيد عن المشرب لكنه في مواجهة القادمين، وكأني أحاذر أن

يباغتني أحد يعرفني، أو كأن الفضول الذي هو إحدى صفاتي العديدة يدفعني لتأمل خطوات الداخلين قبل اتخاذهم مقاعدهم. لقد أصبح هذا الفضول هواية أكسبتني القدرة على تصنيف الناس من خلال خطواتهم عندما يدلفون إلى مكان عام؛ فأعرف المتردد الوجل، وأعرف الواثق، وأميز الغريب من الخبير بالمكان..

قدم شاب أنيق متوسط القامة، لكن اعتداده بنفسه وشموخه جعله يبدو أكثر طولا، ومنحه مهابة وحضورا.. مشى بخطوات واثقة ورأس مرفوع متجها إلى صف الكراسي ذات الساق الواحدة، واتخذ كرسيا في وسط (الكاونتر)، وخفت إليه العاملة ميرنا التي أعدت لي القهوة قبل قليل والابتسامة مرسومة على محياها؛ لا أدري إن كانت هي نفسها التي استقبلتني بها ولم تفارق شفتيها بعد؛ أم ابتسامة جديدة اصطنعتها له، وحيته بكلمة "صباح الخير" متبوعة بكلمة "مستر ألفونسو"!

رد التحية بمثلها، وطلب نوعا من (الكوكتيل) لكن مع تدخلات في المقادير جعلت ميرنا كأنها تعد مستحضرا دوائيا وليس مشروبا!.

قال ألفونسو موجها لها الحديث، ومعللا طلبه الغريب: البارحة امتلأ المسرح بالجمهور الذي كان متفاعلا جدا فحرصت

على أن أقدم لهم ما يسرهم ولو على حساب حبالي الصوتية، ولا أريد أن أحرمهم هذه الليلة من غنائي، أو أزعجهم بصوت نشاز!

ضحكت ميرنا بصوت مسموع، واستدار ألفونسو يحمل كأسه باحثا عن مكان مريح للجلوس، واتخذ مكانه على طاولة مواجهة لي على بعد أمتار قليلة.

التقت عيني بعيني الشاب الأنيق فحياني بإيماءة من رأسه، لكنه ثبت ناظريه قليلا متأملا ملامحي، وما لبث أن حمل كأسه في يده ودنا مني وسألني: السيد سلمان؟

ودون تردد أجبت: نعم.

واستأذنني في الجلوس على الكرسي المقابل لي لا يفصل بيننا سوى الطاولة.. رحبت به، وحين استراح قال: أظنك لم تعرفني. أنا ألفونسو.. كنت أعمل في الرياض سائقا لشاحنة نقل المنتجات تحت إدارتك! ألست سلمان الخاسر مدير الموارد البشرية في الشركة؟

فاجأني ألفونسو بسؤاله وبوجوده هنا، وبثقته في أني سأعرفه من بين آلاف العمال الذين يعملون لدينا في المقر الرئيس، وفي فروعنا التي تغطي المملكة والخليج العربي. والحقيقة أنه كان محقا

حين توقع أنني سأعرفه، فمع أن العمال الفلبينيين في شركتنا كثيرون إلا أن ألفونسو كان مختلفا عنهم جميعا، وكان مضرب المثل في الولاء للعمل والإخلاص لخطيبته.. رحبت به من جديد وسألته عن أحواله وما صنع بعدي.

وقبل أن يجيبني اقتربت منا فتاة ملامحها الفلبينية لا تخفى، وقبل أن تصل إلينا قال ألفونسو: هذه (روزالين) زوجتي!

عرفها ألفونسو بي، وحين أخبرها أنني مديره السابق في الرياض لم تخف دهشتها من المصادفة العجيبة، ولم تبخل علي بوابل من الثناء.

قالت: ألفونسو لا يزال يذكرك بخير منذ أن عاد إلى الفلبين..

قلت: ألفونسو كان مميزا من بين آلاف العمال الذين كانوا لدينا في الشركة فأخلاقه عالية وإخلاصه لعمله لا حدود له كما هو لخطيبته التي أصبحت - فيما يبدو لي - زوجته!

قال ألفونسو: أستاذ سلمان.. إنني مدين لك بما أنا فيه الآن وللسعودية التي كونت فيها نفسي وأمنت مستقبلي وطورت موهبتي الفنية. إنني عشت في السعودية سنتين فقط لكنها كانت بمثابة حياة كاملة فيها كونت مستقبلي المالي والفني.

قلت مستغربا: والفني؟!

قال: نعم. واسمح لي أن أحكي لك حكايتي مع السعودية لأنك قد لا تعرفها، وحتى روزا قد لا تعرف بعض تفاصيلها، ولكي أريك كم أنا محق حين أقول إني أحب السعودية وأهلها!..

سامحك الله يا ألفونسو! وهل هربت إلى هذه المدينة إلا من الحكايات والروايات؟ ألا يكفي قصة حسن التي استغرقت وقت رحلتي من عمان إلى برشلونة؟ أليس ما أنا فيه من هم وغم بسبب تورطي في كتابة رواية؟!

* * *

(7)

ذات ليلة تركت مانيلا وفيها حبيبتي (روزالين) إلى الرياض.. كان كل ما أخشاه ألا أستطيع التكيف مع السعودية بسبب ما سمعت عنها من الجو الحار والشمس الحارقة والصحراء القاحلة، ومن معاملة السعوديين الخشنة للأجانب لا سيما غير المسلمين. كنت أخشى أن أعود قبل أن أنهي السنتين - مدة عقدي - فأرجع ولم أحقق حلمي بجمع رأس مال يكفي لفتح مشروع وإتمام زواجي من روزا!

عملت سائقا لشاحنة أنقل منتجات الشركة من مصنعها في منطقة بالقرب من الرياض إلى أنحاء المملكة.

في أول رحلة لي كنت بصحبة زميلي ماريو الذي توقف بنا في منطقة (البطحاء) ثم صارت عادة لنا في كل مشوار.

والتفتَ إلى روزا موجها الحديث لها هذه المرة: البطحاء جنة المغتربين.. فيها يلتقون ويأكلون ويشربون ويتسوقون بأرخص الأسعار، وفيها المطاعم والبقالات ومحلات الحلاقة والخياطة والأجهزة الإلكترونية لمختلف الجنسيات، ولكل جنسية شارعهم المعروف..

لا أزال أتذكر أول رحلة لي إلى جدة مع زميلي ماريو.. حين أرخى الليل سدوله وغابت الشمس عن الصحراء القاحلة فأوقف الشاحنة جانبا، وأنزل سجادة صغيرة وموقدا يعمل بالغاز المضغوط وأواني بسيطة.. وفرش السجادة على الأرض الرملية بعيدا عن الشاحنة، وأشعل الموقد، وبدأ في إعداد وجبة العشاء، أما أنا فقد استلقيت أتأمل صفحة السماء.. كانت صافية إلا من بعض السحب الخفيفة التي تداعب القمر فتغطي وجهه قليلا ثم تزيح غطاءها الشفاف عنه، وتأملت النجيمات التي تتلألأ حول القمر وبعيدا عنه، وانتشيت بتلك النسمات الخفيفة التي تنعش الروح.

بدأ حديث ألفونسو يتقطع بسبب مقاطعته من بعض رواد المقهى الذين يفاجؤون بوجوده فيحيونه بالابتسامات وبالإشارات فيضطر للرد عليهم..

واصل ألفونسو حديثه: وصلت إلى جدة في رحلتي الأولى مع ماريو. في الصباح الباكر تركنا الشاحنة لعمال المستودع لتفريغها وركبنا سيارة أجرة إلى وسط المدينة، وتحديدا إلى منطقة (باب شريف).. تناولنا طعام الإفطار واحتسينا الشاي ثم خرجنا إلى الشاطئ نتأمل البحر، حتى إذا حان وقت الظهيرة توجهنا إلى

(سوق الندى)، وفي مطعم مزدحم تناولنا وجبة من أسماك الناجل الطازجة وعدنا إلى الشاحنة لنجدها قد أفرغت تماما وأُجريت لها الصيانة اللازمة وأصبحت جاهزة لرحلة العودة..

ازداد عدد المرتادين للمقهى وكثرت المقاطعات منهم بحيث أصبح من المستحيل مواصلة الحديث.. اعتذر ألفونسو ووعدني بتكملة الحديث في لقاء قادم، لكنه ألح علي بحضور حفلته الليلة في مسرح إيبك Epic Theatre ووعدته خيرا!

هذا اليوم هو اليوم الوحيد الذي لا تتوقف فيه الباخرة في أحد الموانئ، ولذا فهو أكثر الأيام ملاءمة لاكتشاف ما في الباخرة من أماكن للتسوق والترفيه والنشاطات التي يمكن أن يمارسها الركاب. وهكذا أمضيت يومي حتى إذا كانت الساعة السادسة توجهت إلى صالة العزاب Studio Lounge وهي الصالة المخصصة لسكان (الاستوديوهات) في الطابقين الحادي عشر والثاني عشر والمعدة للتعارف بين المسافرين العزاب. وجدت المكان مزدحما بكل الجنسيات وبكل الأعمار، والكل حريص على تقديم نفسه والتعرف على الآخرين.. لفت انتباهي فتاة برونزية اللون شقراء الشعر دائمة الابتسامة.. تعارفنا وتحدثنا طوال الجلسة لكن مع كثرة مرتادي الصالة وحرص الجميع على

التعارف لم أعرف عنها أكثر من اسمها وأنها من جمهورية البيرو وتقيم في إسبانيا. وعرفت عني وعن بلادي الكثير فقد كانت حريصة على أن تتعرف على بلادي، وكنت حريصا على تصحيح كثير من المعلومات المغلوطة التي تعرفها لا سيما ما يتعلق بالمرأة وحقوقها.

صعدت إلى الطابق الخامس عشر حيث المنطقة المخصصة للمسابح والألعاب المائية والأنشطة المصاحبة. كانت الساعة تقترب من السابعة والشمس تستعد للرحيل. توقفت عند مقهى الأمواج وأخذت كأسا من عصير البرتقال الطازج، وصعدت عبر السلم إلى سطح الباخرة لوداع ذات الخمار الأصفر قبل أن يلفها الليل بردائه..

في الليل وبينما كانت باخرتنا تمخر عباب البحر المتوسط في طريقها إلى نابولي حضرت الحفل الفني المقام في مسرح إيبيك واستمعت إلى صديقي الفنان الفلبيني ألفونسو.. استمتعت كثيرا بعزفه وغنائه.. عزف مقطوعات من موسيقى الفلامنجو، وغنى بعض أغنيات الإسباني (خوليو إجلسياس) Julio Iglesias.. وأنا أستمع له يرن في ذهني قوله إنه طور موهبته في بلادي السعودية!

بعد الحفلة تقدمت من ألفونسو وحييته، وفرح بحضوري كثيرا، وفوجئت به يدعوني إلى تناول العشاء معه ومع روزا مساء الغد في مطعم Le Bistro. وحين حاولت الممانعة ذكرني بأنه حريص على تكملة حديثه معي وأن الأماكن العامة في الباخرة ليست المكان الملائم للأحاديث الخاصة.. شكرته ووعدته أن نلتقي في المطعم المذكور.

* * *

(8)

في السابعة صباحا وصلت باخرتنا أو جزيرتنا المتحركة إلى ميناء نابولي Napoli وفي الثامنة توجهت إلى المسرح الكبير الذي يتحول نهارا إلى نقطة تجمع وفرز للركاب الذين حجزوا رحلاتهم السياحية في الموانئ التي تتوقف عندها الباخرة. انطلقت كل مجموعة تتبع مرشدها أو مرشدتها نحو الحافلة الخاصة بهم. كانت وجهتي إلى (سورنتو) Sorento و(نابولي).

سارت بنا الحافلة بمحاذاة الشاطئ إلى سورنتو، واجتهدت المرشدة في توجيه انتباهنا لما نمر به في الطريق الساحلي وأكملت – بعد أن توقفت الحافلة وترجلنا منها – شرحها عن مدينة سورنتو الصغيرة، وزودتنا ببعض التوجيهات، وتركتنا لنستمتع بجولة حرة بعد أن حددت لنا نقطة التلاقي زمانا ومكانا.. توزعنا في اتجاهات عديدة إلى أن التقينا ثانية، واصطحبتنا مرشدتنا إلى مطعم للبيتزا تناولنا فيه ما طاب لنا، ثم عدنا إلى مدينة نابولي لنستمتع بالتجوال في بعض المعالم الأثرية والحضارية التي تشتهر بها المدينة.

عدت للباخرة قبل السادسة مساء فوجدت الفرصة مواتية لإلقاء نظرة على صالة العزاب.. وجدت عددا قليلا من الرواد من

الجنسين وليس كما كان بالأمس. هل فترت حماستهم للتعارف، أم أنهم انشغلوا اليوم بفعاليات أخر؟ أمضيت وقتا قصيرا قبل أن أصعد إلى سطح السفينة لأدرك لحظة الغروب وألتقط صورا للشمس وهي تهوي في عين حمئة!

في التاسعة مساء توجهت إلى مطعم (لوبيسترو) ووجدت ألفونسو وروزا في انتظاري. أخذنا مقاعدنا في المطعم الفرنسي الهادئ المطل على البحر مباشرة، وبعد أن حددنا للنادل ما أردنا من طعام وشراب قال لي ألفونسو: هل تود أن أكمل لك حكايتي مع السعودية والفن؟

قلت: بالتأكيد يا صديقي.. لكن اسمح لي قبل ذلك أن أسألك. لقد لاحظت أنك متأثر بخوليو إجلسياس. أليس كذلك؟!.

قال: هذا صحيح. فكلانا كانت القيثارة بدايته والصدفة هي التي غيرت مساره؟

- كيف؟

- خوليو كان يدرس القانون في جامعة كومبلوتينسي في مدريد Complutense University ويلعب حارس مرمى في فريق

الشباب لرويال مدريد. كانت رغبته أن يصبح لاعب كرة قدم محترفا لكنه تعرض لحادث سير وهو في العشرين من عمره، وأصيب بعده بالشلل لمدة عام ونصف. أرادت الممرضة المشرفة عليه أن تروح عنه فأهدته قيثارة ليتسلى بها، لكن الشعور بالإحباط والحسرة بعد أن فقد أمله في أن يصبح لاعبا مشهورا جعله كثير الاستماع للإذاعة والكتابة ولا سيما الأشعار؛ والأغاني خاصة. ومن الطبعي أن تكون نصوص أغنياته محزنةً ورومانسية.. خلال فترة العلاج تعلم العزف على آلة القيثار وأخذ يدندن أغنياته التي كتبها..

تماثل للشفاء فسافر إلى لندن لتعلم اللغة الإنجليزية في جامعة كامبردج University of Cambridge وفي نهاية الأسبوع كان يغني في بار المطار..

واصل خوليو تأليف الأغاني، ويوما ما قرر الاتصال بشركة للأقراص الموسيقية وقدم لها إحدى الأغاني التي ألفها ليغنيها أحد المطربين، لكن مدير الشركة حين استمع إلى الأغنية بصوت خوليو قال له: لم لا تغنيها بنفسك؟ فرد عليه بأنه ليس مطربا!.. لكن هذا استطاع إقناعه بأن يسجلها بصوته، وما هي إلا سنوات قلائل حتى شارك في مهرجان (بينيدورم) الموسيقي

وفازت Benidorm International Song Festival **1968** أغنيته (الحياة تتبع مسارها) La VidaSigueIgual ووقع عقدا مع ديسكوس كولومبيا.

قلت له مقاطعا: إذن كانت الإصابة التي أقعدت خوليو نقطة انطلاقه، كما كانت الغربة نقطة انطلاقك!.

قال لي؛ والتفت إلى روزا: والحب!.. الغربة وحدها لا تكفي للإبداع..

قالت روزا: لكن خوليو يحب الأطفال فلديه حتى الآن ثمانية في حين أن ليس لدينا طفل واحد!

- ثمانية؟

- نعم ثلاثة من زوجته الأولى، وخمسة من الثانية..

- الثانية عشيقته عارضة الأزياء الهولندية (ميرندا ريجنسبيرغر) Miranda Rijnsburger التقى بها في جاكرتا عام **1990** وأنجب منها خمسة كلهم شهدوا زواجه سنة **2010**.

- ما أعجب حال هذه الدنيا!.. لقد التقيت في رحلتي الأخيرة إلى برشلونة بإندونيسي من جاكرتا تعرف على إمريكية جنوبية في إبيزا، وهذا الإسباني يلتقي بالهولندية في جاكرتا..

- بل قل: ما أعجب الحب الذي لا يعرف وطنا!..

شكرت ألفونسو ورزا على حديثهما الممتع عن الفنان العالمي خوليو إجلسياس، واعتذرت من ألفونسو لأني عطلته عن سرد حكايته التي كان هذا اللقاء من أجلها..

قال لي: لا عليك.. الليلة لدينا متسع من الوقت فكلانا - روزا وأنا -في عطلتنا الأسبوعية.

قلت متعجبا: وهل روزا تعمل معك هنا؟

قال: نعم بدأنا العمل معا في يوم واحد لكن كل في مجال!

* * *

## (9)

كاد ألفونسو يستأنف الحديث لولا أنه توقف ليجيب النادل الذي سأله إن كان يريد المزيد من النبيذ.. انتظر حتى استقر كأسه الجديد في مكانه من الطاولة وبدأ يتحدث:

في إحدى رحلاتي التالية ابتدأت بالبطحاء.. تناولت غدائي في مطعم فلبيني، واشتريت هاتفا محمولا، وشريحة اتصال ومأكولات خفيفة طازجة، وفي طريقي للخروج من البطحاء لفت انتباهي محل صغير لبيع الآلات الموسيقية المستعملة، ورأيت قيثارة قديمة لكنها جميلة أعجبتني فاشتريتها بثمن كان مفاجأة بالنسبة لي فلم تتجاوز قيمتها المائتي ريال.. كنت أهوى الموسيقى والغناء وأحب العزف على القيثار، وكنت في الفلبين مغرما بمحلات الكاروكيه karaoke حيث أجلس أشاهد الأغنية وأقرأ كلماتها من على الشاشة أمامي وأمسك المايكروفون لأؤديها كما يؤديها المغني الأصلي!..

حين غابت الشمس كنت في وسط الصحراء.. فرشت سجادتي وأخذت أداعب قيثارتي وأدندن ببعض الأغاني الفلبينية التي أتقنها.. وهكذا أصبحت القيثارة تسليتي في طريقي الطويل، وصورة محبوبتي روزا البلسم الذي يخفف عني معاناتي!..

كانت تقام من حين لآخر حفلات ترفيهية لمنسوبي الشركة منها ما هو خاص بأصحاب الجنسية الفلبينية ومنها ما هو عام لمختلف الجنسيات، وكنت ركنا أساسا في كل هذه الحفلات.. صحيح أن أجهزة الـ دي جي DJ تقوم بالمهمة على خير وجه، ولكن كان لعزفي وصوتي طعم خاص، فكان الجميع لا يطرب إلا لعزفي وغنائي، حتى عرفت بأني مطرب الشركة، ثم مطرب الجالية الفلبينية في الرياض..

ولذلك ما إن حل شهر يونيو من العام التالي وتلقى منسوبو الشركة الفلبينيون إعلانا لحضور الاحتفال بيومهم الوطني في الثاني عشر منه؛ حتى تلقيت دعوة خاصة لإحياء الحفل الفني الذي تقيمه السفارة الفلبينية بهذه المناسبة والذي يحضره أعضاء السلك الديبلوماسي والوجهاء ورجال الأعمال الذين تربطهم علاقات مع الحكومة الفلبينية..

كانت مشاركتي في حفل السفارة اختبارا دقيقا لي؛ ليس للعزف والغناء فقط بل لتعزيز ثقتي بنفسي!..

بعد هذه الليلة التاريخية في حياتي أصبحت أتلقى العديد من الدعوات تلو الدعوات لإحياء الحفلات الخاصة في قصور الأثرياء والوجهاء ومنتجعاتهم، ولكني كنت شديد الولاء لمهنتي والمحافظة

على ساعات الدوام ومواعيد الرحلات فلم أكن ألبي منها إلا ما كان متوافقا مع مواعيد إجازاتي الأسبوعية مع أني كنت أتلقى في الليلة الواحدة ما يوازي مرتب شهر!..

مضت سنتان أحسب أني أثبتُّ خلالهما جديتي في العمل وكفاءتي، وأصبحت موضع ثقة وتقدير من كل من تعاملت معه.. والتفتَ إلي وهو يواصل حديثه:

وعرضتَ علي - كما تعلم أستاذ سلمان - تجديد عقدي وزيادة كبيرة في مرتبي مع إمكانية تغيير وظيفتي بحيث أصبح مسؤولا عن حركة الشاحنات في مقر الشركة وتنتهي علاقتي بالرحلات الطويلة الشاقة.. لكن نداء الشوق في داخلي إلى حبيبتي - والتفت إلى روزا مبتسما - كان كفيلا بأن يجعلني قادرا على حسم الأمر وأقرر العودة إلى أحضانها تاركا خلفي المرتب المجزي والمجد الفني الذي ينتظرني!..

وهنا تدخلتُ لتكملة الجانب الذي أعرفه من القصة وقلت: الغريب يا ألفونسو أن نشاطك الفني لم يؤثر على عملك، ولولا أنك أخبرتني الآن ما عرفت أنك تعلمت ومارست العزف والغناء عندنا. وواصلتُ كلامي: موجها الحديث إلى روزا:

اقترح عليه بعض زملائه من الجنسية الفلبينية- وأنا أيضا - أن يجدد العقد، ومن ثم يمكنه أن يقرر بعد أن يدرس الوضع

معك.. وما الذي يضيره لو لم يرجع؟ كل ما يخسره هو مكافأة نهاية الخدمة؛ مرتب شهر واحد حسبما يقتضي العقد..

قاطعني ألفونسو: وعلى الرغم من اقتناعي بأن هذا الحل غير أخلاقي إلا أنني اضطررت لقبوله إرضاء لزملائي وتخلصا من إلحاحك، فجددت العقد لسنتين أخريين، وحصلت على تأشيرة خروج وعودة، وتذكرة سفر ذهابا وإيابا، لكنني نسيت ما فعلت تماما بعد ذلك!..

وهنا استأذنتْ روزا التي كانت تصغي كل الوقت، وقالت: اسمحا لي أن أروي بقية القصة التي أحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب.. كان خداها قد ازدادا حمرة وكأن النبيذ الأحمر الذي ترتشفه بين حين وآخر قد سري في عروق وجنتيها. تذكرت قول جدي سلم الخاسر:

سـقتني بعينيها الهوى وسقيتها
فدب دبيب الخمر في كل مفصلِ

لم تنتظر إشارة منا للحديث فواصلت:

* * *

(10)

استقبلت ألفونسو في مطار مانيلا استقبالا أطفأ لهيب الشوق المضطرم في صدرينا، وقد كان حديثنا ونحن نتجه إلى الشقة الجديدة التي استأجرتُها عن الترتيبات النهائية لحفل الزفاف وأنه لم يبق سوى تحديد موعده..

بعد أن أخذته في جولة على أركان عش الزوجية المقبل طبع قبلة على جبيني تعبيرا عن شكره لحسن اختياري وذوقي في ترتيب العش..

كنت أخبئ له مفاجأة فصاحب المطعم الذي أعمل فيه افتتح ملهى ليليا، وقد اتفقت معه على أن يضمه إلى الفرقة الفنية التي تحيي سهراته بمرتب يوازي مرتبه في السعودية، إضافة إلى نسبة من الأرباح التي يحققها الملهى!..

شكرني ألفونسو.. قلت له: لا تشكرني.. إنني عملت هذا من أجل ألا تفكر في العودة للسعودية مرة أخرى.

قال لي: ومن قال لك إني أفكر في ذلك؟! لقد حسمت الأمر مبكرا.. يكفي أني قد عاهدتك على ألا أزيد على سنتين وها أنا قد وفيت بوعدي..

أتممنا مراسم الزواج، وأقمنا حفل الزفاف، واستقر بنا الحال وعشنا أهنأ زوجين. وذات يوم- وهو خارج البيت - أخذت أرتب ملابسه وأغراضه، فعثرت في حقيبته على تذكرة العودة إلى الرياض ونسخة من عقد العمل الجديد، وفتحت جواز سفره وقلبت صفحاته وسرعان ما وجدت تأشيرة الخروج والعودة.. كاد الدُّوار الذي أصابني من هول المفاجأة يسقطني أرضا لولا أن السرير كان قريبا مني فألقيت نفسي عليه..

حاولت أن أتجلد أكثر وقمت لأعد طعام الغداء وأرتب السفرة، وما إن انتهيت من ذلك حتى دخل ألفونسو يشدو طربا، واتجه إلي ليقبلني.. قلت له وأنا أخلع من كتفيه معطفه: أراك تدخل البيت مغردا؟

قال لي: وهل هناك طائر لا يعود إلى عشه مغردا؟!

كظمت غيظي قليلا، وحين اتخذنا مقعدينا جوار طاولة الطعام قلت له:

- ألفونسو.. متى ستلتحق بالعمل في الملهى الليلي؟

- لقد استأذنت منهم بضعة أيام أخر لنقوم بجولة - أنا وأنتِ - في الجزر الفلبينية..

- أحقا ما تقول؟!

- وفيم العجب؟ ألا نستحق أن نكافئ أنفسنا على هذه الإنجازات؟ لقد انتصرنا على الحياة يا روزا!

- ولكنك لم توقع العقد بعد؟

- إن توقيعي العقد يعني التزامي به.. ربما يتاح لي عمل أفضل.. الآن عدت من شركة إنتاج فنية عرضوا علي عرضا مبدئيا ليس سيئا!..

ونظرت إليه وعجبت من شدة هدوئه، فقلت له دون أن أنظر إليه: لم لا تقول إن توقيع العقد مع الملهى يعيقك عن العودة إلى السعودية؟

وقف في مكانه كالملدوغ وقال: من قال لك إني أفكر في العودة إلى هناك؟

فأجبت: تذكرة العودة وعقد العمل الجديد، وتأشيرة الخروج والعودة!..

ضحك ضحكة هيستيرية، وقال:

أين هذه الأوراق؟ هاتِها..

وقمت من مكاني أرتجف وأنا لا أدري ماذا سيفعل، وقدمت إليه ما طلب.

أخذ تذكرة العودة ونسخة عقد العمل ومزّقهما، وألقاهما في سلة المهملات، وأمسك بجواز سفره، وقال:

هذا لن أمزقه.. سأحتاجه خاصة إذا غيّرنا وجهة سفرنا إلى خارجِ الفلبين.. إلى تايلاند مثلا.. ما رأيك في (فوكيت)؟!

قلت لألفونسو: حكايتك رائعة يا ألفونسو.. إخلاصك لعملك ووفاؤك للبلد الذي كونت فيه مستقبلك وتضحيتك من أجل محبوبتك.. كلها لا نظير لها..

التفت إلي شاكرا حسن إنصاتي لما سرده علي من حكايته، واستأذنني في متابعة الحديث.

قلت له بالتأكيد أرغب في سماع بقية الحكاية، وكيف انضممت أنت وروزا للعمل في هذه الباخرة؟

قال لي: حين طلبت من روزا مهلة لتوقيع العقد مع الملهى الليلي حتى ننهي جولتنا في تايلاند كأني كنت أقرأ المستقبل! ففي رحلتنا بعد الزواج إلى فوكيت لفت انتباهي باخرة عملاقة تقف على الشاطئ التقيت جوارها مصادفة بصديق لي قديم عرفت منه

أنه يعمل على متن هذه الباخرة، وسألته عن فرص العمل فيها، فساعدني بأن دلني على كيفية التقديم على وظيفة فيها، وبعد عودتنا إلى مانيلا تقدمنا - أنا وروزا- بطلبنا الانضمام للعمل في الشركة؛ أنا في المجال الغنائي والموسيقي، وهي في مجال العلاقات العامة بحكم تخصصها، وبعد ستة أشهر دعينا للمقابلة في مانيلا واجتزناها، ثم دعينا للالتحاق بالعمل على مسار غرب البحر المتوسط..

أنهينا عشاءنا واستمعت إلى حكاية ألفونسو كاملة.. شكرته على كرم ضيافته وعلى حديثه العذب وخرجنا جميعا من المطعم..

* * *

(11)

ما أجمل حكايتك يا ألفونسو.. إنها تستحق أن تكتب بماء الذهب.. لعلي يوما ما أجعل منها رواية.. لكن الرواية أصبحت شبحا يطاردني.. روايتي وروايات الآخرين.. من منا بلا حكاية؟ ومن منا لا تستحق حكايته أن تحول إلى رواية بل إلى (فيلم) طويل أو مسلسلة من عشرات الحلقات؟ كم حكاية استمعت إليها تستحق أن تكتب. كل يوم أستمع إلى حكايات منها المبهج مثل حكاية ألفونسو، ومنها المحزن كحكاية حسن.. تذكرت أغنية يمنية قديمة تقول:

الناس أفلام والدنيا مسارح!

ومن يضمن لك يا ألفونسو ولي من أن تشوه سيرتك وحكايتك لو كتبتها كما شُوهت روايتي التي حرصت كل الحرص أن تكون هادفة خالية من أية مثيرات جنسية، أو شطحات إلحادية، أو خروج على قوانين المجتمع وعاداته وأعرافه.

تذكرت مقالاتي التي كنت أنشرها عن الرواية وما آلت إليه في عصرنا الحاضر وكيف أن الرواية لا تنتشر ولا يكتب لها النجاح ما لم تتطرق إلى واحد أو أكثر من (التابوهات) الثلاثة

(الدين والسياسة والجنس)، وكيف وقعت خلافات بيني وبين قرائي وأصدقائي وزملائي الذين يدعون أن الرواية تعبير عن الواقع وأنها إذا خلت من أحد هذه التابوهات فيعني أنها بعيدة عن الواقع وأنه لا وجود لها إلا في ذهن كاتبها!

تذكرت مقالاتي التي كنت أرسلها للصحف المحلية بعد كل قراءة لرواية من الروايات التي أعدها - من وجهة نظري - ساقطة لأنها تجاوزت الأعراف الاجتماعية والخلقية؛ ولا سيما إذا كان المشهد الجنسي أو التجاوز الديني مقحما على المشهد. كما تذكرت المقالات التي رفض نشرَها رئيسُ التحرير بحجة أنها نوع من الرجعية الفكرية، وأني أريد من الأديب أن يكون مدرسة للأخلاق!

وما الذي يمنع أن يكون الأدب مدرسة للأخلاق يا رئيس التحرير الهمام؟ أليس أدبا؟ بمعنى أن يتأدب النشء بقراءته!

وكم أدت بي هذه النظرة الأخلاقية للأدب إلى صراعات مع زملائي الذين يعارضونني الرأي، ويرون أن الأدب صورة الحياة، والحياة ليست وجها واحدا مثاليا كالذي أراه.

هذه المواقف المبكرة مني نحو الأدب النظيف - إن صحت التسمية - هي ما يُحمّلني الآن وزر ما كتبت مؤخرا؛ بل ما كُتب عني.. معاذ الله أن أكون كتبت ما كتبت!

تسربت إلي هذه الخواطر وأنا أسلم جفني للرقاد ورجوت الله أن يبعد عني أشباح شخوص الروايات حتى لا تطرد سلطان النوم عني فغدا أمامي يوم طويل من التطواف في مدينة (روما) Rome.. ستصل الباخرة صباحا إلى ميناء Civitavecchia القريب من العاصمة ومنه سأنطلق مع السائحين في جولة في أرجاء روما.

في الصباح الباكر تناولت إفطاري وتوجهت مباشرة مع جموع السائحين لتوزيعنا على الحافلات السياحية بحسب اختياراتنا المسبقة..

اختياري اليوم كان جولة حرة، ولذا فالبرنامج لا يتجاوز نقلنا إلى قلب مدينة روما وإعادتنا في نهاية الجولة إلى حيث ترسو باخرتنا مع شرح من المرشدة بما نمر به من معالم وطرقات وإجابة عن استفسارات السائحين التي لا تنتهي!

كنت مستعدا لجولتي هذه بخارطة للعاصمة الإيطالية وتحديد المعالم التي أنوي زيارتها.. توقفت الحافلة بالقرب من أشهر معالم روما الأثرية (الكولسيوم) Coliseum أحد الروائع الهندسية القديمة المتبقية من آثار مدينة روما.. وبعد جولة على هذا المعلم انتقلت إلى أهم شوارع العاصمة وساحاتها، وتوقفت

عند نافورة تريفيFontana di Trevi التي كانت تعج بالسياح من كل جنس ولون أملا في تحقق الأسطورة التي تقول إن كل من يلقي بداخلها قطعة نقود يعود إليها مرة ثانية، أو تتحقق أمنيته أيا كانت!..

عدت مساء للباخرة، ومع هذا الاستمتاع بالرحلة البحرية والجولات السياحية في الموانئ الأوروبية الساحرة إلا أني شعرت بمرور الوقت سدى، فهاهو اليوم الرابع يمضي ولم أحقق هدفي من الرحلة.. كيف يمضي الوقت في هذه الرحلة ولا أجد وقتا أخلو فيه بنفسي وأنا الذي كنت أظن أن هذه الجزيرة العائمة أفضل مكان للخلوة والتفكير، فلا معارف ولا أصحاب ولا حتى وسائل اتصالات!

مشكلتي أني لا أستطيع إلا أن ألقي بكلي لمن يود أن يتحدث معي مهما كانت مشاغلي أو كانت نفسيتي؟ هل هي عادة سيئة أم حسنة؟ لا أدري، فأنا أعد هذا طبعا من طباعي لا أفكر إن كان حسنا أم سيئا، أما الناس - خاصة أصدقائي - فيلومونني كثيرا على تسرعي في الحديث مع كل الناس بكل ثقة؛ حتى الغرباء وكأني أعرفهم منذ زمن.. وهذا ما أضاع علي أربعة أيام من رحلتي هذه دون جدوى.. أما في غرفتي فأشعر بالقلق.. أحس كأن أبطال

روايتي - التي لم أكتبها - وناشرها وقراءها يطاردونني.. تأتي إلي المشاهد السيئة التي لم أتخيل أن تلتصق باسمي لتوقظني، ويزورني أشخاص روايتي يحاولون أن يتحاوروا معي، ولذا أفضل الحديث مع غيري.. أسمع قصصا حقيقية واقعية لا علاقة لها بالأوهام..

في التاسعة مساء ابتدأت سهرة خاصة تحت مسمى(الليلة البيضاء) White Night حيث يشترط على المشاركين فيها ارتداء قميص أبيض.. سهرت مع القوم.. الناس كلهم يمرحون ويضحكون لا تغادر الابتسامة أفواههم. ترى أليس لديهم ما يكدر خاطرهم أم أنهم على سنة امرئ القيس: "اليوم خمر وغدا أمر"؟!

هذه الحفلة يشترط لحضورها ارتداء زي أبيض اللون! لماذا لا يأتي من يقول لهم: لم هذا التعقيد؟ ولماذا لا تتركون الناس أحرارا يرتدون ما شاؤوا؟ هل ملَّ الناس من الحرية حتى يبحثوا عما يقيدهم؟!

لماذا يلتزم الناس هنا بكل طواعية للقوانين؛ حتى وإن كانت شاذة، مثل ارتداء اللباس الأبيض في ليلة سوداء، ويتهربون منها في كل مكان؟ لماذا يحاول الناس في العالم الثالث - خاصة - كسر

القواعد والآداب العامة كأنظمة السير على الأقدام وفي المركبات والانتظام في الصفوف وعدم الامتناع عن التدخين في الأماكن التي يمنع فيها؟

ولماذا يخرج الروائيون عن الآداب العامة التي يفرضها الدين والمجتمع حتى تكون رواياتهم مقروءة ومطلوبة؟!

* * *

## (12)

في اليوم الخامس كان توقف الباخرة في (فلورانس) Florance نزلت من الباخرة وتوجهت مع رفاق رحلتي اليوم..

أخذتنا الحافلة أولا إلى برج بيزا Pisa وتحدث إلينا المرشد عن البرج وأجاب عن استفساراتنا ومنحنا بعض الوقت لالتقاط الصور التذكارية لنا وللمعلم الشهير، ثم عدنا أدراجنا إلى مدينة الفنون فلورانس.. وصلنا إليها قبل انتصاف النهار ومنحنا مرشدنا أكثر من ثلاث ساعات نتنقل في المدينة كيفما شئنا.. ما الذي يمكن أن نراه في ثلاث ساعات في مدينة مثل فلورانسا؟ إن قصر فيكو مثلا PalazzaVecchio والساحة المركزية التي يقع فيها القصر Piazza dellasignoria تحتاج لثلاث ساعات لتأملها فما بالك بكنيسة سانتا ماريا دل فيوري Santa Maria del Fiore فضلا عن الجسور والقصور والحدائق التي تنبض بالفن المعماري والإتقان الهندسي؟!..

عدت مساء، ومررت على مقهى الأمواج لآخذ مشروبا أتناوله أنادم به ذكاء ساعة الوداع.. على كرسي جلدي طويل يمكن التحكم في درجة ميله للخلف إلى حد الاستلقاء

ضبطت ميله على **120** درجة تقريبا فصار وجهي مقابلا للأفق البعيد حيث تتجه الشمس وظهري ملتصقا بالكرسي..

هاهي الفرصة أتيحت لي الآن لخلوة فكرية لأفكر كيف أعلن براءتي من تلك الرواية المشوهة المنسوبة إليّ ظلما وزورا، والتي بيع منها آلاف النسخ ولم أحصل على مال؛ إن لم يكن تعويضا ماليا عن جهدي، فليكن تعويضا عن سمعتي التي فقدتها!

عدت الآن إلى روايتي.. كانت تتحدث عن فتاة سعودية من أسرة محافظة مثل معظم أسرنا، ابتعثت لمواصلة دراستها العليا في بريطانيا. كانت الفتاة ذكية نابهة فتخرجت بتفوق وحرصت الجامعة على عدم التفريط فيها فعرضت عليها العمل عضو هيئة تدريس ووافقت.. في أثناء إقامتها في بريطانيا تعرفت على شاب هندي مسلم أحبته وأحبها، وكادا يمضيان في زواجهما لولا أن أسرتها قرعت جرس التنبيه لأنها تجاوزت الخطوط الحمراء. وألحت عليها بالعودة فلم تجد بدا منها وعادت لتجد في بلدها رؤية **2030** التي أعادت للمجتمع نقاءه الطبعي، ومنحت المرأة ما تستحقه من معاملة كريمة.. وحمدت ربها أن عادت لبلادها وأهلها..

هذه كل حكاية بطلة روايتي فكيف شوهها الناشر حين رأى أنها بهذا الموضوع وهذا العرض لن يكتب لها النجاح.. استغل فرصة وجود الهندي في صلب الرواية ليجعله عشيقا يطارح بطلة روايتي الغرام، ويسهر معها في حفلات الكوكتيل، ويقضيان معا إجازاتهما الأسبوعية في منتجعات (برايتون) و(كارديف) و(توركي). ويروي القصة بعد القصة عن فتاة متحررة من كل القيم تظهر في قنوات التلفاز البريطاني لتعلق على كل حدث في المملكة تعليقا لا يصدر إلا من سفيه، ويجعل منها بعد عودتها فتاة متحررة تحرض في مقالاتها وفي محاضراتها على الاختلاط والسفور، وتعدهما شرطين لأي تقدم وتطور. ولم يكتف الناشر الدجال بهذا التزييف في المضمون؛ بل عمد إلى العنوان الهادف الذي اخترته - وقد نسيته الآن - ويغيره إلى (السعودية والهندي).. عنوان سخيف كالذي اختاره، لكنه - كما هو رأيه - عنوان تشويقي تسويقي!

كنت أبحث عن ناشر لروايتي يتولى طباعتها وتوزيعها حتى لو لم أحصل إلا على الفتات. المهم عندي أن أجدها أمامي في رفوف المكتبات وفي أجنحة الناشر في كل معرض كتاب..

اتصل بي صديقي إبراهيم ليحمل لي خبرا سعيدا.. قال لي إنه وجد ناشرا لروايتي دون أن أتكلف ريالا واحدا.. واتفقنا أن نلتقي أنا وإبراهيم لمعرفة التفاصيل..

قال لي: هذا ناشر ناشئ لكنه ذو طموح وأفكار تسويقية غير تقليدية.. وهو يتعامل مع كبار الروائيين في الوطن العربي..

دخلت على موقع شركته وقرأت تفاصيل كثيرة عن عروض الطباعة والنشر والتوزيع والخيارات المتعددة ونماذج للعقود..

حينما تواصلت مع الناشر عن طريق الإيميل راح يرحب بي وكأني أحد كبار أعلام الروائيين العرب، وكلما حاولت أن أتحاشى مديحه المسرف لشخصي المتواضع، وإبداعي الأقل تواضعا أخذ ينفخ فيّ حتى قلت لنفسي: ربما أنه يعرفني أكثر مني!

قال لي إنني لو لم أتصل به لاتصل بي، هو فهو في حاجة لاسم كاسمي ليضمه إلى قافلة المبدعين الذين ينشرون عنده، وأنه كثيرا ما يعتذر لأنصاف المبدعين مع أنهم على استعداد لأن يدفعوا ضعف ما يطلبه من غيرهم، لكن ما يهمه هم المبدعون الحقيقيون، لأن سمعة داره أهم عليه من كل المكاسب المادية!

يا لهذه السمعة التي كلٌّ يطلب ودها!

حتى صديقي إبراهيم أظنه تأثر بثناء الناشر علي، فقال لي: أنت تجهل مقدار نفسك وإبداعك؟ هذا الناشر له متعاونون معه يبحثون له عن المبدعين في صفحاتهم الفيسبوكية ويرشحونهم، ولا يطبع لكل أحد كما قال لك..

لولا أني أعرف صديقي إبراهيم حق المعرفة لظننت أنه شريك للناشر!

لا أدري كيف أقنعني بأن أختار ما يلائمني من عروضه المتعددة وخياراته وأوقع العقد معه فورا..

كان من ضمن الخيارات أن يأخذ مني العمل في ملف (وورد)، وأن يكون ذلك آخر عهدي به، وأن يسلمني مقابل ذلك مبلغا فوريا مجزيا، ولكي يشجعني على خيار آخر قال لي إنني أكتب تعهدا بألا أطالب بأي حق من حقوق التأليف بعد ذلك حتى لو فازت روايتي بجائزة من الجوائز الثمينة!

أما العرض الثاني فيشتري مني حق التأليف ويدفع لي مبلغا مقابل ذلك لكنه أقل من عرضه السابق ونتقاسم معا قيمة الجائزة في حال فوز الرواية، وتبقى الرواية تحمل اسمي لكن الحقوق تكون للناشر ويتكفل هو بالطبع والتوزيع. وليس لي أي نصيب من الأرباح بعد ذلك!..

الخيار الثالث أن نكون شركاء. الرواية تحمل اسمي لكن الحقوق له وهو يتكفل بالطبع والتوزيع وتكون لي حصة كبيرة من الأرباح في الطبعة الأولى وفي الطبعات اللاحقة، وأيضا يكون شريكا لي في أية جائزة تحققها الرواية!

الحقيقة أنه جعلني في دوامة من الأفكار مع هذه العروض المغرية والمتنوعة.

الأمر الذي أرابني منه هو خياره الأول أن تكون الرواية ملكا له يفعل بها ما يشاء.. وفكرت: ما ذا سيفعل بها؟ هل يبيعها لكاتب ناشئ بضعف ثمنها الذي يدفعه لي؟! واستبعدت هذا العرض لأنه سيستبعد اسمي من عالم الروائيين والمبدعين الذين يحاول استقطابهم كما زعم.. ثم إني فكرت في حرماني من الجائزة لو فازت روايتي بها! طبعا لم أفكر أن تفوز روايتي ولا بجائزة محلية أو مسابقة لكن ربما أنه كان يرى في روايتي ما لا أراه أنا!

العرض الثاني جيد لكونه يمنحني مبلغا ماليا مقطوعا لكن المغامرة التي تجري في دمي تجعلني أختار الخيار الأخير.. أن نكون شركاء في الأرباح مهما تعددت الطبعات، والأهم من هذا أن نكون شركاء في الجوائز التي بدأت أقنع نفسي أن روايتي قد تفوز بها!

كم أحسد هؤلاء الناس الذين يملكون قدرات خارقة على الإقناع!..

* * *

(13)

ما أتعس المادة حين تكون هي من يوجهنا!

كيف غفلت عن الشروط الأخرى وركزت على الحقوق المالية؟ هاهو الناشر انتهى من طبع روايتي وبدأ في نشرها في الأسواق العربية وأرسل الحصة التي ستوزع في المملكة لكن الرقابة كانت لها بالمرصاد فمنعتها من الدخول إلى بلادي!..

حين اتصلت بالسيد (حمدي) أسأله لم تمنع روايتي من الدخول للمملكة وقد حصلت على فسح مبدئي لها؟ بارك لي وقال: هذه بشرى خير. هذا يعني أن روايتك ستنتشر انتشارا مهولا وستحقق مكاسب لا تحلم بها، وستباع من تحت الطاولة بضعف ثمنها..

طلبت من الناشر إرسال عدد من النسخ لي بالبريد الممتاز حتى أقدم النسخ المطلوبة لوزارة الثقافة ولمكتبة الملك فهد الوطنية وأحصل على الفسح النهائي، فقد ظننت أن في الأمر سوء فهم أو لبس، فالكتاب الذي يفسح مبدئيا نادرا ما يحرم من الفسح النهائي إلا إذا أجرى المؤلف في كتابه تغييرا عما في

مسودته التي قدمها للوزارة.. ترى هل غير السيد حمدي في كتابي شيئا؟!.

أبلغني السيد حمدي بأن له صديقا سيأتي إلى الرياض بعد يومين، وسيرسل معه عشر نسخ بدلا من البريد الممتاز.. قلت في نفسي ما أبخل هؤلاء التجار؛ يكلف على صديقه توصيل عدد محدود من الكتب حتى يتحاشى رسوم البريد! ثم تذكرت أن كتابي من الممنوعات، ومادام الأمر كذلك فلا بد من تهريبه كسائر البضائع الممنوعة!

أول ما فضضت الطرد استرعى انتباهي هذا العنوان السخيف الذي تحمله روايتي: (السعودية والهندي)!

ظننت التغيير مقصورا على العنوان، لكن ما إن بدأت القراءة حتى هالني الأمر! لقد جعل المشهد الأول - أو المدخل - أحد لقاءات السعودية بالهندي في أحد مراقص برايتون!

أجبرت نفسي على إكمال روايتي السمجة حتى أرى إلى أي مدى امتد هذا التشويه المتعمد للرواية وتغيير مسارها وأحداثها.

فور إنهائي قراءة الرواية اتصلت بالناشر على هاتفه المحمول ولم يرد.. اتصلت ثانية كان مشغولا.. ثالثة لا يرد.. زاد هذا من

توتري ولا أدري إلى أي رقم يمكن أن تصل إليه قراءة ضغط دمي لو أني قسته تلك اللحظة. حتى إذا بلغ مني التوتر حده وجدت الخط ينفتح ويرد بمنتهى المرح:

أهلا وسهلا أديبنا الكبير. شفت الرواية؟ إيه رأيك؟!

بادلت تحيته بالشتم، وقلت له بكل ما يحمل قلبي من غيظ:

ما الذي فعلته بروايتي يا مجرم؟ ومن سمح لك بتغييرها؟

قال لي بكل هدوء: أستاذ سلمان يبدو أنك لم تقرأ العقد؟ ارجع للعقد رجاء، واقرأ الفقرة الثامنة تحديدا إن لم يكن لديك الوقت الكافي لقراءة العقد كاملا!

لم أتصور أبدا أن ينص العقد في مادته الثامنة على أن "للطرف الأول بناء على مقترحات فريق العمل تعديل عنوان الرواية و/أو محتواها بما يراه مشوقا للقارئ ومساعدا على تسويقها واقتناص الجوائز المحلية والعالمية ودون الرجوع للمؤلف"!.

لقد قرأت العقد أكثر من مرة وفي كل مرة يكون تركيزي منصبا على الفقرات المالية، وموعد الإنجاز، ونسبة الأرباح، لكني لم أقرأ ما عدا ذلك لظني أنها فقرات عادية، فهل كنت أتصور أن يضع مثل هذه الفقرة ناشر إلا أن يكون شيطانا أو نصابا محتالا؟!..

قلت له كلاما كثيرا لا أذكر معظمه الآن لأنني كنت في حالة من الغضب غيبت عقلي تماما. لكني أذكر أني قلت له إنني لا أقبل هذه الرواية، ولا يشرفني أن تحمل اسمي، وإنني سأقاضيه في بلده كما ينص عقده!

رد علي بكل هدوء ردا يذكرني بالمثل العربي "ويل للشجي من الخلي": أستاذ سلمان.. تذكر أن عرضي الأول كان أن نشتري منك الرواية ولا علاقة لك بها بعد ذلك، وعرضنا عليك مبلغا كبيرا وفوريا لكنك اخترت هذا العرض.

- وما ذا كنت تنوي فعله بالرواية لو أني وافقت على ذلك العرض؟.

- لا داعي الآن للحديث عن عرض لم تقبل به. عموما وتوفيرا للوقت أنا تحت أمرك فيما تريد ضمن ما ينص عليه العقد، وإن أردت مقاضاتي فلك ذلك، لكن أنصحك باستشارة محام حتى لا تخسر مصاريف القضية ونفقات رحلاتك التي ستتكرر بتعدد الجلسات. أم أن الخسارة تجري في دمك يا سلمان الخاسر؟! إلى اللقاء.

وأغلق الهاتف!

لا أدري أكان استفزازه لي بعبارته الأخيرة أكثر إيلاما لي؟ أم لقبي الذي صار اسما على مسمى؟ أم إنهاء المكالمة وإغلاق الهاتف المفاجئ؟ أم هدوؤه وثقته بنفسه؟!

أول شيء فعلته أن أعدت قراءة العقد ثلاث مرات مع التركيز الشديد على كل فقرة، والتفكير في كل معنى محتمل أو مخفي.. حتى إذا أنهيت القراءة استخرجت من الطابعة نسخة ورقية ناويا أن أعرضها على أصدقائي الثقات الذين أخمن أن لهم دراية بالعقود وصياغتها، أو على الأقل قدرة على التفكير لمساعدتي في الخروج مما أنا فيه، أو أسألهم أن يدلوني على محام متمكن يمكنه أن يجد لي مخرجا.

لكني ما إن قابلت أول صديق التقيت به وألقيت عليه السلام إلا وبادرني: مرحبا بالروائي الكبير والكاتب الملتزم!

عرفت ما ذا يعني لكني وجدت نفسي أسأله: كيف وصلك الخبر؟

قال (ساخرا): رواية مثل (السعودية والهندي) هل تعتقد أنها ستظل سرا؟ ألم تكتبها بهدف الانتشار؟ ألم تتصفح صفحات التواصل الاجتماعي بعد؟ ألم تر (الهاشتاقات) في تويتر؟ لكن

للحق فلبست كلها تجرمك.. هناك (هاشتاق) يدافع عنك عنوانه "بمثل_ هذه_ الرواية_ سنصل_ للعالمية_"!

عبثا حاولت أن أنفي عن نفسي تهمة كتابة هذه الرواية، فالرواية تحمل اسمي وصورتي، وسيرتي الذاتية تحتل الصفحة الأخيرة!

الذي يصدقني يفعل ذلك ليتجنب غضبي وانفعالي، أو يفسر ذلك بأني ندمت بعد طباعة الرواية، ومنعها، وانشغال الرأي العام بها.

لم أتنبه كم مضى من الوقت وأنا مستلق على هذا الكرسي الجلدي ومستغرق في التفكير في روايتي التي لم أكتبها إلا بعد أن نزلت من سطح الباخرة إلى الطابق السادس حيث يعج بصخب الناس الذين لا هموم لديهم، أو أنهم أجلوا همومهم لحين عودتهم إلى بلادهم!

* * *

## (14)

وصلت باخرتنا صباح اليوم إلى (كان) Cannes.. وما هي إلا ساعة حتى انطلقت بنا حافلتنا السياحية إلى مدينة نيس Nice وترجلنا منها لجولة على الأقدام في المدينة العتيقة مرورا بسوق الأزهار the flower market ثم واصلنا طريقنا إلى موناكو Monaco وأخذتنا مرشدتنا في جولة بين المعالم الرئيسة تناولنا خلالها طعام الغداء، ومن ثم انتقلنا إلى مونت كارلو Monte Carlo وأشهر مركز للقمار the Place du Casino حاولت المرشدة تشجيعنا على تجريب حظنا دون جدوى فعدنا أدراجنا وركبنا حافلتنا عائدين لباخرتنا..

حينما ولجت غرفتي الصغيرة وجدت مع النشرة اليومية للباخرة التي اعتدت أن أراها كل يوم ظرفا مغلقا مكتوبا عليه من الخارج (دعوة خاصة) وموجها لي بالاسم ورقم الاستوديو.. فضضت المظروف وإذ به من مركز الفنون بالباخرة، تدعوني المسؤولة عنه إلى حضور حلقة دراسية (سيمينار) ومشاهدة معرض الفن التشكيلي في السادسة من مساء اليوم.. نظرت في ساعتي فوجدت الوقت قد أزف. ارتديت ما يليق بالمناسبة وأسرعت لحضور السيمينار والمعرض..

كان هدف الحلقة تقريب الفن التشكيلي من ذائقة الجمهور غير المختص، إذ بدأت المحاضرة بعرض بعض اللوحات واحدة إثر أخرى، والاستماع في كل مرة لوجهة نظر المشاهدين وانطباعهم العام عن اللوحة، ثم تقوم المختصة بترجمة الإحساس العام لدى المشاهد العادي إلى رؤية فنية.. كان المعرض مليئا باللوحات المدهشة وقد بيعت معظم اللوحات فلم يتبق إلا النزر اليسير، ولاحظت من جدول فعاليات الأيام الماضية أن هناك محاضرة كل يوم، وأن هناك ورشة لتدريب الهواة ومرسما حرا.. خرجت بانطباع أن الباخرة مدينة ساحرة، وأن أسبوعا لا يكفي لاكتشاف ما فيها، فمن المؤكد أن هناك مناطق لم أحط بها بعد!..

خرجت من صالة الفنون ومررت مقهى الأمواج لآخذ مشروبا أنادم به قرص الشمس، لكن الشمس كانت قد رحلت قبل أن أتمكن من وداعها فأخذت أتأمل حمرة الشفق التي خلفتها وراءها..

اتجهت إلى الطابق السادس لتناول طعام العشاءفي مطعم شنغهاي Shanghai's Chinese Restaurant من باب التغيير عن النظام الأوروبي الذي درجت عليه في الأيام التي سلفت ومن باب اكتشاف الأماكن التي لم أزرها بعد، مع أن الرحلة تكاد تلفظ أنفاسها..

تذكرت أنني لم أتجول في السوق الحرة Duty free shop ولا في المتاجر بغرض التسوق بعد زيارتي الاستطلاعية في اليوم الأول، فصعدت عبر السلم إلى الطابق السابع لكني وجدتها جميعا مغلقة، وعلمت من اللوحات المعلقة على أبوابها أنها تغلق عند السابعة كل يوم فتركت زيارتها لليوم التالي..

تسلل إلى أذني صوت عزف بيانو وأرسلت أذني باتجاه الصوت فقادتني إلى بار شاكر Shaker's Martini Bar واتخذت مقعدي على أحد المقاعد مستمتعا بنغمات البيانو في ساعة من ساعات صفو ليل الباخرة الصاخب..

قبل مغادرتي بار شاكر سمعت إعلانا من الإعلانات المعتادة للتذكير بالبرامج التي حان وقتها، ومن بين العروض كانت الموسيقى الصاخبة في سهرة بعنوان Burn the Floor فسألت نفسي لم لا أجرب الصخب بعد الهدوء، والضجيج بعد الاسترخاء؟! اتجهت إلى المسرح حيث موسيقى التانغو والرامبا Tango and Rumba والراقصون تكاد أرض المسرح تحترق من تحت أقدامهم!..

نظرت إلى ساعتي بعد أن خرجت من صخب المكان فوجدتها تقترب من الثانية عشرة لكني تذكرت أن الباخرة لن تصل إلى

المحطة القادمة (بالما دي مايوركا) Palma de Mallorca إلا عند الواحدة من بعد منتصف النهار وأن مغادرة الباخرة في الجولة السياحية الأرضية في الواحدة والنصف ظهرا وليس كالمعتاد صباح كل يوم.. أقنعت نفسي بالمزيد من السهر فتوجهت إلى المكان العام المحبب للمسافرين كافة وهو مقهى أتريوم.. كان هادئا على غير العادة مما جعلني أتجاذب أطراف الحديث مع بعض النادلين والنادلات والمجاورين من الزبائن..

عدت إلى غرفتي آملا في نوم هادئ وإن كنت لا أطمع في ذلك لكثرة ما رأيت هذا اليوم من مواقع، وكثرة من قابلت من أشخاص وتحدثت إليهم؛ فضلا عمن يتربص بي من أبطال روايتي!..

استيقظت مبكرا كالمعتاد فلم يكن لسهري ليلة البارحة أي أثر لتأخير الاستيقاظ، فالساعة البيولوجية لا تزال تعمل بانتظام..

انتهزت فرصة تأخر بدء جولتي السياحية اليوم في زيارة مراكز التسوق في الباخرة، واشتريت بعض الملابس الشتوية، وعرجت على السوق الحرة فاقتنيت شيئا من العطور الفرنسية، والحلوى السويسرية..

ثم صعدت إلى الطابق الخامس عشر فاستوقفني معرض مفتوح outlet لبيع التذكارات وكأنه إعلام بقرب نهاية الرحلة.. انتقيت بعض الهدايا التذكارية..

أودعت مشترياتي غرفتي وعدت للطابق الخامس عشر حيث الصخب النهاري حول المسابح والألعاب المائية، وفي الجهة المقابلة فوجئت بالاستعدادات المبكرة لغداء مبكر، فقد صفت الموائد خارج مطعم Great Outdoors وبدأ الطهاة في شي شرائح اللحوم والدجاج والأسماك.. وعند منتصف النهار تماما أذن للمنتظرين بتناول ما لذ وطاب..

***

# (15)

في الواحدة ظهرا توقفت الباخرة في الجزيرة الإسبانية (بالما دي مايوركا) Palma de Mallorca وهي المحطة التي تسبق محطة برشلونة التي انطلقت منها.. وجهتي اليوم وسط جزيرة مايوركا بصحبة مرشد لمدة أربع ساعات..

ركبت الحافلة واتخذت مقعدي مجاورا للنافذة.. بينما أتأمل الحركة على رصيف الميناء من نافذة الحافلة إذ سمعت من يستأذنني في الجلوس في المقعد المجاور لي، وحين التفت إلى مصدر الصوت إذ بفتاة برونزية اللون ذات رأس أشقر، خفيفة الحركة، منفرجة الابتسامة، لم تنتظر جوابي لأنها ألقت بجسمها جواري وهي تبادرني ضاحكة: مرحبا سيد سلمان.. سعيدة أن تجمعنا الصدفة مرة أخرى!

ورددت عليها التحية بمثلها، وأنا أحاول أن أتذكر أين رأيتها من قبل، فشكلها لا يبدو غريبا!

قالت: منذ أن التقينا في (اللاونج) لم أرك. أين اختفيت؟.

الآن تذكرت.. التقيتها في اليوم الثاني من أيام الرحلة في لاونج الاستوديوهات في الطابق الثاني عشر المخصص للمسافرين العزاب، وتعارفنا وتحدثنا زهاء الساعة. كان معظم الحديث من جهتي إذ عرفتها على المملكة مركزا على تطور المرأة بعد القرارات الملكية الأخيرة الجريئة.. تذكرتها تماما وتذكرت كل حرف دار بيننا، لكن اسمها أفلت من ذاكرتي.. أحاول عصر ذاكرتي لعلي أتذكر اسمها.. ما أتعس الذاكرة حين تمتلئ بما لا تحتاجه في حياتك أبدا ويختفي منها ما تحتاجه فعلا فيوقعك في الحرج!..

أخذنا نتحدث عن رحلاتنا في الأيام السابقة التي لم نلتق فيها، فقد كان لكل منا وجهته في كل ميناء.. في هذه اللحظة مدت العجوز التي تجلس في الصف المجاور لها ورقة يسجل المسافرون أسماءهم فيها ليتشكل منها قائمة بالركاب لتتعرف المرشدة على أفراد مجموعتها وتتفقدهم بعد كل محطة توقف.. أمهلتها حتى أكملت كتابة اسمها، ثم ناولتني الورقة، ولمحت اسمها: (رامونا)..

قلت لها: كان لقاؤنا في اللاونج لقاء خاطفا، وقد خشيت أن تغيب الشمس ذلك اليوم قبل أن أودعها فخرجت، وصعدت للسطح أتأمل رحيلها المؤقت..

ضحكت وقالت: يبدو أنك شاعر رومانسي؟!

خشيت أن أقول لها إني لست شاعرا بل روائيا، فتحكي لي روايتها وتطلب مني كتابتها، فقلت لها: نعم. تخمينك صحيح!

- بأي لغة تكتب؟

- بالعربية.. لغتي!.

- وأنا من البيرو كما أخبرتك من قبل أم أنك نسيت؟ ولكني مقيمة في برشلونة منذ أمد.

- لا. لم أنس شيئا مما دار بيننا. أبدا..

أخذنا نتحدث عن الرحلات البحرية وميزاتها، وعن باخرتنا نفسها ومرافق التسلية فيها. قلت: لكن مشكلة هذه الرحلات أن المسافر يجب أن يحجز منذ وقت مبكر، فقد حاولت أن أحجز في رحلات الصيف ولم أتمكن، فاضطررت أن أقوم برحلتي بعد أن حل الخريف..

ضحكت وهي تقول: أما أنا فلم أحجز إلا قبل أسبوع!

- كيف؟

- في كل رحلة سياحية - أو حتى رحلة طيران - فترة تسمى حجوزات اللحظة الأخيرة Last minute وغالبا ما يكون السعر منخفضا، لكن لا بد أن تكون مستعدا للسفر إلى أية وجهة.

هذه المقاعد الشاغرة غالبا ما تكون لمسافرين ألغوا حجوزاتهم في اللحظة الأخيرة، وتود الوكالة السياحية، أو الشركة ملء الشواغر ولو بنصف السعر..

- شكرا لك على هذه المعلومة المفيدة.. أحيانا يجد الإنسان نفسه في حاجة لرحلة فورية.

– تماما كما حصل لي.. فقد تعرضت لأزمة حادة لم أجد من وسيلة لتجاوزها إلا رحلة بحرية عاجلة كهذه.

قلت مطمئنا لها- وأنا الذي أحتاج إلى من يطمئنني - كلاما لا أؤمن به لكن لم يخطر على بالي سواه: من ذا الذي لا تعصف به الأحداث؟ لكن لا شيء يبقى على حاله.. الزمن كفيل بحل كل معضلة!

نظرت إليّ وقالت: ليت الزمن يقدر على حل كل المعضلات!

انشغلت عن الحديث مع جارتي بالتمتع بالطريق الساحلي الجميل Paseo Maritimo وبمناظر اليخوت الراسية على البحر والفنادق الفخمة.. توقفت الحافلة في مركز المدينة وترجلنا منها مشيا على الأقدام في الأزقة القديمة مع وقفات على المعالم الأثرية.. الوقفة التالية كانت عند القلعة الأثرية Bellver Castle منحتنا

مرشدتنا وقتا حرا لمدة ساعة لحين العودة لحافلتنا.. عرضت على رامونا أن نجلس في مقهى من المقاهي التقليدية أمام القلعة، وحين استقر بنا المقام قلت لها: حدثيني عن بلادكم (البيرو) فأنا لا أعرف عنها الكثير..

عرفت منها أنها غادرت (ليما) عاصمة البيرو للعيش في برشلونة، بعد أن حصلت على الثانوية العامة مباشرة، ثم أكملت تعليمها الجامعي في برشلونة، فهي تعد نفسها إسبانية، ولم يعد لها علاقة ولا رغبة في العودة إلى بلادها الأصلية..

كيف لهؤلاء أن يتنكروا لبلادهم عند أول صدمة؟ تذكرت حسن وكيف ترك بلاده وعاد إلى إسبانيا لمجرد أن جرحته أخته؟ وها هي رامونا البيروية تعاف بلادها التي ولدت وترعرعت فيها من أجل أرض وجدتها ألين موطئا وأوفر لقمة؟ أين هؤلاء منا - نحن العرب - الذين نردد في كل مناسبة قول شاعرنا:

وطني لو شـــغلت بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفســـي

وأينهما من قول شاعرنا:

ولــي وطــن آليــت ألا أبيعــه

وألّا أرى غيري له الدهـرَ مالكا

تبًّا لهؤلاء الجاحدين يغادرون أوطانهم بلا رجعة كلما اعترضتهم حادثة؟!

وكأنما كانت رامونا تقرأ أفكاري، فعادت لتكمل: لا تظن خروجي من بلدي جحودا، فلعلك إن عرفت حكايتي عذرتني!

مرة أخرى مع الحكايات يا رامونا؟!

ولدت في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي في قرية بالقرب من ليما في وقت كانت البلاد تئن فيه من العنف السياسي، وكان من أسباب هذه الاضطرابات السياسية تفشي البطالة والفقر والمرض وانتشار المخدرات، ونتيجة لذلك ازدادت وفيات الأطفال بشكل ملفت للانتباه لا سيما قبل الألفية الثالثة.. لقد حصد الموت إخوتي وكنت الناجية الوحيدة من بينهم؛ حتى أمي فقدتها في أثناء ولادتها لشقيق لي نزل ميتا.

أما أبي فكان من ضحايا المخدرات.. بدأ مولعا بها حتى أدمنها، ثم لم يعد يعمل.. ولم يجد ما يشتري به المخدر إلا أن يتعاون مع المهربين، فتحول من مدمن إلى مهرب، وبهذا أخرجته من قائمة حساباتي.. هكذا وجدتني وحيدة، فجئت إلى برشلونة لأنها أقرب بلد لنا طباعًا، وهذا ما سهل لي العيش فيها، فاللغة

واحدة والديانة واحدة. أكملت تعليمي الجامعي، وتخرجت في الإدارة العامة لكني لم أجد عملا إلا نادلة في مطعم..

ركبنا الحافلة من جديد في طريق عودتنا إلى باخرتنا.. لم نتحدث بعد ذلك لأن المرشدة كانت تشرح لنا بعض المواقع التي نمر بها مشيرة إليها تارة نحو اليمين وتارة نحو الشمال، وكأنها تريد أن تفرغ ما بقي لديها من كلام لم تحكه حتى الآن، وتلمح من طرف خفي لاستحقاق قائد حافلتنا الهمام لما تجود به أيدينا من (يوروات) نظير مهارته في قيادته وتعبه معنا!

* * *

## (16)

دخلت غرفتي وأبدلت ملابسي الشاطئية النهارية وارتديت ملابس الليل البارد نوعا ما، واتجهت أول ما اتجهت إلى لاونج العزاب فهذه الليلة الأخيرة بل الساعات الأخيرة على مغادرة الباخرة وكأني أريد أن أودع كل ركن فيها كما ابتدأتها في يومي الأول متفقدا وفاحصا..

كان المكان شبه خال، وما إن طلبت من النادل الإيطالي فنجان قهوتي التركية حتى دخلت مجموعة من الشبيبة من الجنسين ملؤوا المكان ضجيجا ومزاحا.. أكملت فنجاني وخرجت أقصد المكان المعتاد في مثل هذا التوقيت لأرقب قرص الشمس المحمرة خجلا.. تذكرت أن مطعم مانهاتن The Manhattan Room الواقع في الطابق السادس يوفر إطلالة بانورامية على البحر لمن يأتي في وقت مبكر ليختار من بين الطاولات المجاورة للنوافذ الكبيرة، وهذا ما حصل، فقد أخذني أحد النادلين إلى موقع استراتيجي مطل إلى جهة الغروب، وكانت الشمس قد انغمس نصف جسمها في البحر.. طلبت عشاء مبكرا،كما كان غدائي هذا اليوم مبكرا..

خرجت من المطعم في طريقي إلى المنطقة الصاخبة في الردهة الرئيسة، وقبل أن أصل إلى المقاعد الوثيرة المواجهة لشاشات العرض والإعلانات والدعايات توقفت في مقهى أتريوم Atrium Café وطلبت (كوكتيلا) واتخذت مكاني مع الجمهور أمام الشاشة الكبيرة..

بدأت الإعلانات تظهر على الشاشة لتذكر الناس بالفعاليات التي ابتدأت والتي ستبدأ: عزف القيثار في مسرح إيبك، البيانو في بار شاكر، ديسكو في ....، سيرك في ...... وهكذا تفرق الناس من حولي وبقيت مع نفر قليل أفكر أين أذهب.. بعد نصف ساعة تقريبا أعيد الإعلان مرة ثانية: "عزف القيثار في مسرح إيبك و..." وتذكرت صديقي الفلبيني ألفونسو، وأني لم أره منذ تلك الليلة وقررت أن أمضي السهرة في مسرحه وأودعه..

عند المدخل التقيت روزا وهي تهم بالخروج.. تبادلنا التحية، وسألتها لم تركت المسرح قبل نهاية العرض؟!..

قالت: الليلة لدي عمل مكثف من الآن حتى الصباح، فهي التي تسبق رسو السفينة في ميناء برشلونة، وكل الركاب في هذه الفترة يجرون عمليات الخروج check out

وسألتني: متى سأنهي إجراءات خروجي؟ فقلت لها: عندما أودع ألفونسو بعد الحفلة.

قالت: حسنا أما أنا فسأودعك عندما تعمل (الشيك آوت)!

بدأت أستعرض مقاعد المسرح بحثا عن مكان شاغر بدءا من الصف الأخير حتى انتهيت إلى الصف الأول، ولحسن الحظ وجدت أحد النظارة يغادر مكانه فاحتللته، وصرت مواجها لخشبة المسرح تماما ولألفونسو.. اجتهد ألفونسو في مقطوعاته الموسيقية والغنائية، وأمتع الجمهور المحتشد وكأنما كان يغني للوداع..

انتهى العرض وتقدمت مع الجمهور نحيي ألفونسو ونشكره على إمتاعنا، واضطررت للانتظار قليلا حتى غادر معظمهم وودعت ألفونسو على أمل أن نلتقي ولو في وسائل التواصل الاجتماعي..

خرجت من المسرح واتجهت إلى مكاتب (كاونترات) المحاسبة ووقفت في الصف منتظرا دوري، وتوجهت للمكتب الذي تقف خلفه روزا. دفعت قيمة المشتريات الإضافية التي اقتنيتها من السوق الحرة، ومن محلات الهدايا، وودعت روزا.

حين استيقظت في السادسة صباحا كانت الباخرة قد رست في ميناء برشلونة.. خرجت إلى المضمار، وركضت ما يقرب من نصف ساعة، وعدت إلى المنطقة المفتوحة أمام مطعم الحديقة Garden Cafe وتناولت قهوتي في الهواء الطلق متأملا معالم برشلونة، حتى إذا ما فتح المطعم في السابعة كنت أول الداخلين.. تناولت إفطاري الأخير، واتجهت إلى غرفتي.. ارتديت ملابس مريحة استعدادا لرحلة تمتد عشر ساعات إلى مدينة الرياض..

* * *

(17)

طائرتي عند الثانية عشرة ظهرا وهذا يعني أن عندي متسع من الوقت أمضيه في مطار برشلونة الدولي في انتظار الطائرة الأردنية..

لم يكن معي سوى حقيبة يد أخذت أجرها من خلفي، وحقيبة أصغر منها علقتها على كتفي، وخرجت عبر الممر الطويل المؤدي إلى خارج الباخرة.. على طول هذا الممر وعلى جانبيه وقف عدد لا يحصى من العاملين والعاملات في الباخرة يلوحون بأيديهم ويقدمون لنا الورود.. خرجت إلى مواقف سيارات الأجرة وركبت أولى من صادفت، وطلبت من سائقها إيصالي إلى مطار برشلونة الدولي.. وقبل أن أربط حزامي وأغلق باب السيارة لمحت رامونا تنتظر سيارة أجرة.. حييتها وسألتها عن وجهتها، فعرفت أنها ذاهبة للمطار، فعرضت عليها أن ترافقني..

وركبتْ. وعندها قالت:

- أظنك متجها إلى رحلة دولية أليس كذلك؟

- نعم.

- أنا رحلتي داخلية لذلك أحتاج صالة الرحلات الداخلية.

قال السائق: من المطار الدولي تستقلين حافلة المطار إلى صالة الطيران الداخلي.. متى رحلتك؟

- في الواحدة ظهرا..

- معك متسع من الوقت..

حين انطلقت سيارة الأجرة سألتُ رامونا عن وجهة سفرها قالت إلى إبيزا!.. أخذت تحدثني عن إبيزا وجمال طبيعتها ومنتجعاتها. سألتني لم لا أمضي بضعة أيام إضافية من إجازتي فيها؟ شكرتها واعتذرت بأعمالي التي تنتظرني في الرياض..

كانت سيارات الشرطة مزروعة طوال طريقنا إلى المطار، بعضها ثابت في مكانه وبعضها متحرك.. دار حوار بين رامونا والسائق باللغة الإسبانية، وتنبهتْ فجأة إلى أني لا أتابع حوارهما مما يدل على أني لا أفهم لغتهما، فاعتذرت وترجمت لي ملخصا لما دار بينهما.. قالت: إنها سألت السائق عن وضع البلاد، فأجابها بأن رئيس كاتالونيا قد هرب إلى بلجيكا يوم أمس!..

أوقف السائق السيارة ونزلنا معا في صالة الطيران الدولي.. كان يفصلني عن فتح مكاتب الاستقبال لرحلتي ساعتين ورامونا ثلاث ساعات. اقترحت عليها ألا تستعجل في الذهاب إلى الصالة الداخلية لكي نمضي جزءا من وقت الانتظار للمزيد من التعارف..

اتخذنا مقعدين في أحد مقاهي المطار، وأخذنا نرتشف القهوة.. أخرجت من جيبي بطاقة تعريفية وناولتها إياها، وقلت: كي نبقى على اتصال دائم. شكرتني واعتذرت بأنها ليس معها بطاقات، وأنها لا تملك في الوقت الراهن رقما هاتفيا!

ضحكتْ وهي تقول: طبعا لن تصدق أن امرأة لا تملك رقما هاتفيا! الحقيقة أني أملك رقما منذ عشر سنوات، لكني مضطرة لتغييره حالا..

قالت هذا واستأذنت مني أن تغيب دقائق.. ورأيتها تتجه لشركة Movistar وتعود بعد دقائق وتمليني رقمها الجديد.

قالت: منذ الأزمة التي مررت بها قبل أسابيع قلائل أقفلت هاتفي الجوال حتى لا يستطيع الوصول إلي! ثم أضافت: أنت لا تعرف الأزمة التي أتحدث عنها.. ظننتني أخبرتك عنها بالأمس.

قلت لها: كنتِ قد بدأت في الحديث حينما كنا في مايوركا لكن وصول الحافلة لم يمكنك من إكمالها.

قالت: نعم.. لي زميل يعمل معي في مطعم منذ سنوات، وقد أحببته وأحبني وقد اتفقنا على الزواج، وأمضينا أياما من أسعد الأيام التي مرت بكل منا، نسينا معها الغربة وأنشأنا وطنا جديدا اسميناه (وطن الحب)!

- وهل صديقك مغترب أيضا؟

- نعم، ومن بلاد بعيدة جدا.. أبعد من بلادي.. من إندونيسيا. بالتأكيد تعرفها؟..

- وأظن أني أعرف حبيبك أيضا.. اسمه حسن؟!

حتى هذه اللحظة وأنا نادم على جملتي هذه.. كان الأولى أن أجعلها تكمل حديثها، ثم أحكي لها حكاية الفتى الإندونيسي الذي قابلته لتكتشف بنفسها أنه هو صاحبها، لكني بأسلوبي هذا جعلتها تنظر إلي بارتياب، إذ لا يمكن أن تفسر معرفتي بخطيبها إلا بأني ساحر، أو أحد أفراد الشرطة السرية!

أصيبت بقدر غير يسير من الذهول، وأظنها ودت لو تتخلص مني، لكن الفضول دفعها لأن تسألني كيف عرفته؟!

قصصت عليها حكاية الشاطر حسن منذ أن التقيته حتى ودعته، وقلت لها - لأستدر عطفها عليه - إنه نادم على تفريطه فيها، ومتخوف ألا تغفر له..

- لن أعود له مطلقا، وكان الأجدر به ألا يعود إذا كان عائدا من أجلي..

- صحيح أنه أخطأ حين فكر في العودة إلى بلده بعد هذه العلاقة الوثيقة بينكما، لكن كل منا معرض لحالات نفسية تجعله يتخذ قرارا متسرعا ومتهورا.. ولو أن عنده في هذا الكون من يلجأ له غيرك لفعل، لكنه يراك الملاذ الأخير!

- فليبحث له عن ملجأ آخر.. إنني أفكر جديا في إلغاء رحلتي إلى إبيزا، والبحث عن مكان آخر في إسبانيا لا أراه فيه..

استدعت النادل، وظننتها ستطلب الحساب لكنها طلبت كأسا من الـ (باكاردي) Bacardi.. شعرت أن الكراهية التي يحمله قلبها لحسن أكبر من كل حب حمله من قبل!..

حاولت فيما تبقى معي من وقت قبل أن تفتح مكاتب الطائرة الأردنية للتسجيل أن ألتمس لحسن عذرا حتى أقنع رامونا بالصفح عنه لكني لم أفلح..

استأذنت من رامونا.. ودعتها وتمنيت لها رحلة سعيدة، وطلبت منها التريث والتمهل قبل اتخاذ أي قرار، وتمنيت عليها أن نظل على تواصل وأن أسمع منها أخبارا سارة..

تسلمت بطاقة صعود الطائرة، وأنهيت إجراءات المغادرة، ودلفت إلى صالة الطيران الداخلية في انتظار صعود الطائرة..

عجبا لك يا سلمان الخاسر تجتهد في حل مشكلات الآخرين وأنت الذي عجزت عن أن تحل مشكلتك.. وجدتني دون شعور أردد قول الشاعر:

وغير محب يأمر الناس بالهوى

طبيب يداوي الناس وهو عليل

* * *

## (18)

في رحلة العودة من برشلونة إلى عمان كان ركاب الطائرة أقل منهم في رحلة الذهاب.. كان المقعدان المجاوران لي خاليين.. بعد وجبة الغداء تدثرت باللحاف الصوفي الذي وجدته على مقعدي وألقيت بنفسي على المقاعد الثلاثة المتجاورة في محاولة للقيلولة التي نسيتها منذ أن غادرت بلادي..

لم أكن مجهدا للدرجة التي جعلتني أستغرق في النوم طيلة الرحلة إلى أن نبهتني إضاءة مصابيح الطائرة، وصوت المضيفة التي تقف على رأسي تطلب مني ربط الحزام.. طلبتُ منها كأسا من الماء فجاءت به على عجل، وتجرعته على مهل..

حاولت استعادة المشاهد التي مرت علي أثناء إغفاءتي الطويلة، وتعجبت أن ناشري لم يخطر لي على بال، وأن شخوص روايتي لم يظهر لي منهم أحد، وهم الذي كانوا يطاردونني طيلة الليالي الماضيات في غرفتي الصغيرة في الطابق الثاني عشر من الباخرة.. هل يعد هذا دليلا على انفراج الأزمة، وعلى تصالحي مع روايتي ومع ناشري؟!..

في الرحلة الثانية من عمان إلى الرياض كان يجلس إلى جواري رجل أعمال أردني، شاب فوداه وانحسر الشعر من وسط رأسه، عرفت منه أن من ضمن أعماله العديدة دار نشر في العاصمة الأردنية! ما هذه المصادفة العجيبة؟ أهرب من ناشر فألتقي بناشر وجها لوجه؟!

كان لا بد أن يكون حديثنا عن هموم النشر لا سيما بعد أن تبادلنا بطاقات التعارف.. لكن هل أصرح له بحكايتي وأطلب منه الاستشارة؟ على الأقل إن لم أجد عنده الرأي والمشورة فلن يعنفني كما يفعل من يعرفني من أصحابي ومن أبناء مجتمعي.. لكنه قطع علي حبل التفكير بقوله وهو يتفحص بطاقتي في يده: روايتك كان عليها طلب غير معقول في معرض عمان.. ما شاء الله تبارك الله. لا بد أنك لاحظت هذا أثناء وجودك بعمان!

بماذا أجيب الآن؟ وهل يسمح لي الوقت بالتفكير للرد على الرجل؟

- كنت في عمان (ترانزيت) فقط.. لم أمكث في عمان غير ساعتي الانتظار في المطار..

- أين كنت إذن؟

- في رحلة بحرية في البحر المتوسط..
- حسنا فعلت. أنتم - الروائيين- تحتاجون مثل هذه الرحلات لمزيد من الإبداع..
- هل انتهى المعرض؟
- انتهى قبل أسبوعين..

كنت أتحاشى الحديث عن روايتي لكنني الآن سأجره للحديث عنها..

- هل قرأت الرواية أستاذ مروان؟.
- لا والله.. نحن - الناشرين - مهمتنا الطبع والتوزيع لا القراءة.. لا نقرأ حتى ما ينشر عندنا..
- ألا تتدخلون في ما يقدم لكم من مسودات؟
- عندنا فريق تدقيق ومراجعة لكنه لا يتدخل في مضمون الكتاب.
- هل تصدق أن روايتي هذه لم أكتبها؟!

التفت إلي مندهشا مما قلت وبدا أنه غير مصدق..

- كيف ذلك واسمك على غلافها؟ لا أخفيك سرا لقد أصبح اسمك يتردد على ألسنة المثقفين والناشرين مع من هم على شاكلتك من المؤلفين..

- ما ذا تعني بهؤلاء المؤلفين؟

- المؤلفون الذين عرفوا كيف يكتبون ما يحتاجه جمهور القراء.

- ولذلك قلت لك إني لم أكتبها.. الذي كتبها فريق الناشر..

وسردت على الناشر الأردني قصتي مع ناشري، وأصغى إلي دون مقاطعة، حتى إذا انتهيت سألني عما فعلت بعد ذلك..

قلت له: لم أفعل شيئا حتى الآن.

فأعاد السؤال بصيغة ثانية: وما ذا تريد أن تفعل؟

قلت له: أنا في حيرة في أمري، ولعل الله بعثك لي مستشارا دون أن أدري.. هل لك أن تدلني ماذا أفعل؟

تحرك في مكانه قليلا، وحل عقدة ربطة العنق التي تكاد تخنقه والتفت إلي بكُلِّه، وقال:

- اسمع يا سيد سلمان.. الآن الرواية باسمك فمن الصعب أن تنفي ذلك عنك، حتى لو حصلت على صك يبرؤك منها، فلا داعي للإنكار والتهرب من مسؤوليتها.. وما عليك إلا متابعة حقوقك المالية لدى الناشر حسبما ينص عليه العقد، فإن جحدك أو بخسك حقك فتستطيع مقاضاته كما تطالب بأي قضية مالية.

- لكن هذه الرواية لا تمثل منهجي الذي نشأت عليه ولا توجهي الذي أؤمن به.

- عليك أن تتخلى عن ذلك إما اختيارا أو اضطرارا.. بعبارة أخرى إما أن تتبنى هذا النهج من الكتابة ويصبح هو أسلوبك الجديد، وإما أن تغيره بكتابات جادة ملتزمة، وسينسى الناس روايتك هذه كما نسوا ما سبقها من شبيهاتها.. مجتمعاتنا سرعان ما تهب مع كل جديد ومع كل مخالف، لكن ما يميزها أن ذاكرتها قصيرة المدى..

- لكن يا سيد مروان كيف سأواجه مجتمعي الآن؟

ركز مروان نظراته في وجهي وكأنما يقرأ جديتي فيما أقول، وضحك وهو يقول:

- أليس جدك سلم الخاسر هو الذي يقول:

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

لم أستطع أن أخفي ابتسامتي وسروري من قوله، سواء أكان بسبب إعجابي بجدي وحكمته، أم لقرب وصولي لحل مقنع!

إعلان كابتن الطائرة اقترابنا من مطار الرياض ومطالبتنا بربط الأحزمة كان إعلانا آخر لوقف الحديث مع جاري الطيب..

حاولت أن يحدد لي موعدا نلتقي فيه بعد وصولنا للرياض وإنجازه مهمته التي جاء من أجلها، لكنه اعتذر بأن وقته محدود وأنه سيعود بعد يومين.. رجوت له إقامة طيبة في الرياض، واتفقنا على أن نلتقي في شهر ديسمبر القادم في معرض جدة الدولي للكتاب..

* * *

(19)

استقر في ذهني أن أطالب ناشري - الذي أصبح شريكي - بمستحقاتي عنده، وهذا يعني اعترافي بوليدي ومقابلة المجتمع بوجهي الجديد، فقد جربت التهرب والتكذيب والادعاء بأنني خُدعت فلم يصدق أحد.. إذن فلا بد مما ليس منه بد.

لم يكن لدي الرغبة في مهاتفته حتى لا أسمع منه ما يغيضني، فقررت أن أرسل له رسالة (واتس أب) وأرى رده.

أرسلت له رسالة مختصرة مفادها أنني أرغب في كشف حسابي عن الفترة الماضية، وكأني بهذا أعلن عن انهزامي واستسلامي وتراجعي عن تهديدي بمقاضاته. لم يرد على رسالتي، وبدلا من ذلك اتصل بي هاتفيا:

- الحمد لله على السلامة سيد سلمان. عامل إيه؟

- أهلا وسهلا سيد حمدي.

- أخيرا اعترفت أن الرواية روايتك؟! أنا حاضر بما تريد.. كشف الحساب يصلك هذه الليلة..

- شكرا لك.

لم أكن في حاجة للمزيد من الكلام خاصة بعد أن ابتعد عن أسلوبه الساخر الذي كان يستفزني به أثناء فترة الخصام.

في المساء وصلني كشف الحساب من حمدي.. أخذت أتأمل في مبيعات الرواية، وفوجئت بمبالغ مجزية خاصة في معارض الكتب.

المشكلة الآن في مواجهة المجتمع؛ خاصة حين ألتقي وجها لوجه بالمثقفين والصحفيين والأصدقاء. لا بد أن أتبنى وجهة النظر التي لا أؤمن بها أصلا؛ بل التي هي على النقيض مما أؤمن به. ما أصعب أن تدافع عن فكرة لا تؤمن بها! رحت أبحث في المقالات الأدبية والكتب التي تناولت نظريات الأدب.. رحت أقرأ في مذهب الالتزام حتى أكون قادرا على الرد على أنصاره، وأقرأ في مذهب الفن للفن حتى أتظاهر بأني من المنتمين إليه وأدافع عنه.

مع مرور الأيام أصبح لي (شلتي) من الأدباء والكتاب والروائيين الذين هم على منهجي الجديد، وكان علي أن أتآلف مع هذه الشلل الجديدة، والتخلص تدريجيا من أصحابي السابقين. ما أصعب أن يغير الإنسان جلده.. لكن مع مرور الأيام وتلاشي الفقاعة لم يعد الأمر يقض مضجعي، وتسربت إليّ البلادة للدرجة التي اكتشفت أني كنت أُهوِّل المسائل في الفترة الماضية.

عُرض علي أن أكتب عمودا أسبوعيا في بعض صفحاتنا الثقافية ومجلاتنا، واعتذرت لأني وإن كنت تخففت من عبء المبادئ التي كنت أؤمن بها وتبنيت المبادئ الجديدة؛ لكن ليس إلى الدرجة التي تجعلني أعبر عن أفكاري الجديدة كتابة وصراحة، كما أنه ليس من المنطقي أن أكتب كما كنت عن الأدب الملتزم وأنا الذي أصبحت من الخارجين عليه!.

أفقت من قيلولتي المعتادة ووجدت مكالمة لم يرد عليها من رقم جوال سعودي غير مسجل في دليل الهاتف.. انتظرت حتى أفقت تماما وأصبحت مستعدا للحديث، واتصلت بالرقم الغريب، وكان على الطرف الآخر السيد مروان يتحدث إلي من جدة فقد جاء مشاركا في معرض جدة الدولي للكتاب.. بعد التحية والترحاب سألني متى سأحضر للمعرض؟ووعدته بأن أكون هناك في نهاية الأسبوع..

اتجهت أول ما وصلت لمعرض الكتاب إلى جناح ناشري لألتقي به للمرة الأولى، ولأطمئن على وضع روايتي.. أخذني السيد حمدي بالأحضان، وابتسامته التي كنت أسمعها من قبل هأنذا أراها تملأ وجهه.. لم يكن سيئا في استقباله وبشاشته ولا حتى في سخريته وطرفته.. سبحان الله كيف تحولت كل عيوبه إلى محاسن حين نظرت إليها بعين الرضا!

مد لي حمدي نسخة من روايتي، فقلت له:

- عندي.. ألم ترسل لي عشر نسخ؟

- لا.. هذه غير!

وضحك وهو يضيف: تأملها جيدا.. افرض أنك تلعب لعبة البحث عن الفرق بين الصورتين!

- نعم.. الغلاف باهت نوعا ما عما سبق..

- هذا فرق واحد لكن ماذا غير؟..

- الطبعة الرابعة يا حمدي! هل هذا معقول؟ أربع طبعات في بضعة أشهر؟!

- وسنطبع المزيد طالما الطلب عليها يزداد! احسب كم نسخة بعناها الآن وأنا أتحدث معك.. كيف لو أعلنا عن وجودك في الجناح، أو كان لك توقيع؟!

- لا.. أرجوك يا حمدي.. لا أريد أحدا أن يعرف..

- كما تريد.. أأنت خائف؟ أم خجل؟! عموما في السعودية لا تستطيع أن توقع روايتك لأنها لم تفسح نهائيا، لكن في معرض القاهرة الشهر القادم سنحتفي بروايتك.. سيكون لك توقيع في المعرض، ونقيم ندوة لمناقشتها من كبار النقاد

المصريين، ولو أردت إضافة أحد من زملائك النقاد السعوديين سيكون أفضل..

- ليس لدي فكرة الآن.. سأفكر في الأمر لاحقا..

- لكن رد علي عاجلا حتى نرتب أمورنا دون ارتجال.. تعرف أني لا أحب الأعمال المرتجلة!..

آه يا حمدي لو تدري كم أتعذب وأنا أرى الشباب والفتيات الذين جاؤوا للمعرض لينهلوا من معين الثقافة والأدب والفكر وهم يقبلون على هذا الهراء، ويدفعون فيه ما تطلب منهم دون تدقيق.. وكم أتعذب أكثر وأنا أعرف أن نسبة كبيرة من هذه الأموال ستصب في حسابي البنكي دون وجه حق.. من يدرك حجم معاناتي؟!

انتقلت إلى جناح الأردني مروان وسلمت عليه وسألني أول ما سألني عن روايتي.. لم أشأ أن أبث له ما أصابني من غم وأنا أراها تُتخطف من رفوف الجناح حتى لا يستولي الحديث عنها على وقت صديقي ولا يشغله عن عمله..

جلت في جناح الناشر الأردني ووجدت إصدارات جليلة وطباعة فاخرة، ووعدته أن يكون هو ناشر إصداري القادم، وأبدى استعداده وسعادته..

***

(20)

حل معرض القاهرة الدولي الكتاب، ولم أزر المعرض حسب وعدي للسيد حمدي.. لكن معرض الرياض ما إن فتح أبوابه حتى كنت من المواظبين على حضوره بشكل يومي، أتابع ما يقبل عليه الناس من كتب وروايات، وأتصنت على ما يدور بين الرواد من أحاديث عن الكتب التي تشكل ظاهرات جديدة وطارئة على مجتمعنا، وأتابع آراء الناس في وسائل التواصل الاجتماعي عن بضاعة معرض الكتاب وما يقبل عليه الجمهور، فهذه كتب لأطفال عباقرة لم يبلغوا الحلم وقد ارتقوا منصات التوقيع، وهذا كتاب باللهجة العامية السوقية، وهذه كتب سحبت من الأرفف بعد أن سمح لها لتجاوزها الخطوط الحمراء..

أما أجنحة الروايات فحدث ولا حرج عن الإقبال على روايات بعينها لا أدري كيف سرت أسماؤها بين رواد المعرض، وكيف تواصوا بينهم على اقتنائها، ولقد ساءني أن ما رأيته في معرض جدة يتكرر في الرياض من إقبالهم على روايتي، ولولا خشيتي أن يعرف الناس أني مؤلف الرواية لاستوقفتهم لأسألهم ما الذي أغراهم فيها ورغبهم في اقتنائها!

تابعت جدول الندوات الثقافية فلم أجد ندوة تناقش محتوى الرواية وكيف يجب أن يكون مع أن بعض هذه الندوات تناولت لغة الرواية وحبكتها وسردها..

من حسن حظي أن حمدي لم يحضر بنفسه للمعرض وقد أناب عنه دارا أخرى، وفهمت من صاحب هذه الدار أنه لم يحصل على تأشيرة دخول..

انتهى المعرض واتصل بي حمدي بعد أيام يعتذر لعدم تمكنه من الحضور لظروف خاصة؛ وليس كما نقل لي زميله من أنه لم يمنح تأشيرة دخول، وطلب مني رقم حسابي ليودع فيه مستحقاتي فقد مضى عام من صدور روايتي، وحان وقت الحساب..

لم يمض سوى بضعة أيام حتى أودع المبلغ في حسابي، وبقدر ما أسعدني المبلغ إلا أنه أحزنني.. أحزنني لأنه كان دليلا على تردي المستوى الثقافي لأبناء بلدي وبناته.. ولأنه دليل على خوائهم الفكري، والأهم من هذا أنه مقابل عمل لم أنجزه!..

سامحك الله يا جدي سلما.. ألم ينصحك صديقك أبو العتاهية - بعد أن تنسَّك - وحذرك من الذل الذي يجر إليه الانسياق وراء المال؟! ألم يقل لك:

تعالى الله يا سلم بن عمرو    أذل الحرص أعناق الرجال

فلم تجبه إلا بتهكم أقرب ما يكون إلى الهجاء حين رددت عليه:

ما أقبح التزهيد من واعظ     يزِهِّـد الناس ولا يَزهـدُ

أما لو أنك ارعويت، وسمعت نصيحة صديقك ما أورثت الجشع أحفادك؟!

اقتنيت العديد من الكتب التي لا تستحق الحبر الذي سودت به - ولا سيما الروايات- وكنت أستهدف اتجاه المؤلفين والقراء على حد سواء، وقد لاحظت أنها تفوق في أسعارها روايات كبار الروائيين العرب، وأن معظمها كتب بلغة ركيكة مليئة بالأخطاء اللغوية، ولو كان لي من الأمر شيء لمنعتها لهذا السبب فحسب؛ فهو وحده كاف عندي لمنعها..

تجدد في ذهني بعد أن تأملت هذه الكتب والروايات مشروع تأليف كتاب يصف الحالة الثقافية المتردية التي وصلنا إليها، وكأنني نسيت مع حماستي أنني أحد المسهمين في هذا الغثاء، وأنه لا يحق لي بعد اليوم الكتابة الجادة، أو أن أنصب نفسي موجها للمجتمع ومتحدثا باسم الفضيلة..

أستطيع أن أقول إني اعتزلت الأوساط الثقافية بعد أن عجزت عن التعايش مع لوني الجديد، أعني الجرأة التي كُتبت بها

الرواية المنسوبة لي، ولم أعد قادرا على الظهور بمظهري السابق؛ مظهر الكاتب الملتزم بقضايا أمته ومجتمعه وهمومهما.. بدأت أفكر في قول الناشر الأردني مروان بأن المجتمع سرعان ما ينسى الظواهر، فكلما أطلت علينا ظاهرة جديدة أزالت من الذاكرة ما قبلها، وأن مجتمعنا سرعان ما يتعافى من ظاهرة الكتابات السطحية والمُسِفَّة، ورأيت بعد تفكير أن عزلتي وكسر أقلامي لن تعود لي بجدوى، ولن تصحح لي مسيرة، وأن الحل الصحيح هو العودة للكتابة الجادة التي ستزيل ما علق بذاكرة الناس من الخواء الفكري الذي وصمتني به روايتي!..

استجمعت قواي الذهنية وقلت لا يمكن أن أصحح مسيرتي الأدبية التي انحرفتْ إلا بأعمال جديدة رصينة. قفزت إلى ذهني حين جلست في مكتبي أمام لوحة المفاتيح قصة العازف الفلبيني الذي تركته يعزف كل ليلة ويغني لرواد مسرح إيبك.. تذكرت سائق الشاحنة الذي طور موهبته، وترك مقودها ليقود فرقة موسيقية، وقلت لنفسي: لِمَ لا أكتب روايته فهي تستحق؟!..

فتحت صفحة جديدة، وفي منتصف السطر الأول كتبت العنوان: (سائق الشاحنة)!..

* * *

(21)

وصلتني إشارة من بريدي الإلكتروني بوصول رسالة جديدة.. فتحت الرسالة وجدتها رسالة طويلة باللغة الإنجليزية مصدرة بالبسملة ولكن بالحروف اللاتينية.. ظننتها من رسائل المتسولين الأفارقة الذين يحسبون أني قادر على إصلاح ما أفسده الحكم الجائر في بلدانهم، أو من أحد مديري البنوك الذين اكتشفوا حسابات لرجال أعمال، أو ورؤساء دول غادروا الدنيا ولا يدري أحد عن أرصدتهم سوى هذا المدير، أو لعلها من أرملة مليونير في دولة بائسة لا بسمح لها النظام باسترداد حقها في ميراث زوجها إلا بالاستعانة برجل شهم مثلي!.. هذه الرسائل التي تعودت أن أتلقاها مكتوبة باللغة الإنجليزية ومبدوءة بالبسملة.. كدت أحذفها لولا أني انتقلت مباشرة إلى اسم المرسِل في آخر الصفحة فوجدته (حسن سوباردي)، والعنوان: باندونج Bandung – إندونيسيا!

حسن؟ ومن إندونيسيا؟ ألم أتركك في إبيزا يا حسن؟ ما الذي أعادك إلى بلادك التي غادرتها غاضبا مقررا أن يكون طلاقك منها بائنا؟ هل انتصرت كرامة رامونا على حبها؟

يقول حسن في رسالته: حين تركتني في مطار برشلونة غادرت لصالة الطيران الداخلي لأستقل طائرة داخلية إلى إبيزا، وفوجئت حين وصولي المطعم بعدم وجود حبيبتي رامونا، ولما سألت عنها عرفت أنها غادرت صبيحة اليوم نفسه إلى برشلونة لتستمتع بإجازة لمدة أسبوع.. سألت زميلاتها في المطعم عن وضعها فأجمعوا على أن حالها ازدادت سوءا بعد أن تركتها، ومن المؤكد أن إجازتها المفاجئة كانت للترويح عن نفسها بعد هذه الأزمة..

وبعد أسبوع تماما عادت وكنت أظنها ستطير فرحا لرؤيتي، لكنها استقبلتني استقبالا باهتا، وكأنها كانت تتمنى أن لم أعد.. حاولت مع أصدقائنا المقربين أن يتوسطوا بيننا لإزالة الخلاف بعد أن فشلت حتى في إيجاد ساعة من الزمن للحديث معها.. بذل الأصدقاء جهدهم، حتى إنهم أقاموا احتفالا في المطعم بمناسبة عودتي، وكان هدفهم انتهاز فرصة الحفل للتقريب بيننا لكنها - مع الأسف - لم تحضر الاحتفال وكانت هذه رسالة واضحة بأنها لم تعد راغبة فيّ..

وجدت كرامتي تحتم علي العودة إلى بلادي مهما لاقيت فيها من المنغصات.. قدمت استقالتي لصاحبة المطعم، وكانت على علم بكل تفاصيل المشكلة، فتحدثتْ مع خطيبتي لكن دون

جدوى.. حاولتْ هذه ثني عن العودة لكنني أصررت واتخذت قراري النهائي..

أظنك ترغب في أن تعرف ماذا فعلت بعد ذلك؟ توجهت إلى بيتنا في بوجور، واطمأننت على شقيقتي وأطفالها، وغادرتهم إلى العاصمة جاكرتا، لأن فرص العمل فيها أكثر منها في مدينتي الصغيرة، فوجدت عملا في شركة منتجعات كبرى، لكن ليس في العاصمة بل في فرع مدينة (باندونج) Bandung، وهكذا استقر بي المقام..

حين أنهيت قراءة رسالة حسن وجدتني أترنم بقول شاعرنا العربي:

بلادي وإن جارت علي عزيزة    وأهلي وإن ضنوا علي كرام

كدت أنسى حسن ورامونا بعد وصولي أرض بلادي، وغرقي في معمعة وظيفتي اليومية، ثم في محاولاتي التعايش مع مجتمعي الجديد، ثم انسلاخي من القديم والجديد على حد سواء!..

لمَ لمْ تخبرني يا حسن بموقف رامونا بعد عودتها؟ ولم يا رامونا لم تخبريني بما عزمتِ عليه بعد لقائك حسنا؟ ولكن هل سأفيدهما بشيء لو فعلا ذلك؟ ماذا ينفع الناصح مع القلب إذا

عصى؟ وهل يجدي الدواء من لا يستخدمه؟هل أخبرتْ رامونا حسنا بلقائنا في رحلة (الكروز) ثم في مطار برشلونة؟ لا أظن لأن حسنا لم يذكر في رسالته ما يشير إلى ذلك، ولأن رامونا - فيما يبدو- لم تتحدث لحسن بعد عودته بشيء مطلقا..

كتبت لحسن رسالة جوابية شكرته فيها على أنه تذكرني ولو بعد حين، وذكرت له بالتفصيل لقائي برامونا ونصحي لها بانتهاز فرصة أتاحها لها القدر من بعد أن يئس كل منكما من الآخر.. رجوت له حياة سعيدة، كما رجوته أن نبقى على تواصل دائم..

أغلقت صفحة البريد الإلكتروني وعدت إلى لوحة المفاتيح وحذفت العنوان الذي كتبته من قبل (سائق الشاحنة) وكتبت بدلا منه: (الكرامة تنتصر على الحب)!..

اعذرني يا ألفونسو فقصتك ليس فيها غير الفرح والسعادة، وهذان - مع الأسف - لم يعودا من الموضوعات التي يحرص على الكتابة فيها مؤلف، ولا يلقي لها البالَ قارئ.. مجتمعنا اليوم كئيب متجهم يقرأ قصص المآسي ويتابع الكوارث، ولا تثريب عليه فالجحيم الذي يشاهده صباح مساء على القنوات الإخبارية، ومناظر الدماء والأشلاء، والتقتيل والتحريق، والتهديم والترحيل أصبحت هي المناظر المألوفة كل يوم.. حتى الكوارث الطبيعية من

زلازل وأعاصير وبراكين لم تعد شيئا يسترعي الاهتمام؛ فقد غطت عليها أفعال البشرية الهوجاء.. معذرة يا ألفونسو سأكتب رواية حسن ورامونا لأنها تحاكي ما عليه المجتمع اليوم من تقديم العداوة على التسامح، والتطرف على الاعتدال، والتهور على التروي في شؤون الحياة.. معذرة يا ألفونسو قصتك قصة حب خالص شفاف، واليوم لا يقبل المجتمع الحب؛ بل يفضل عليه الكره والعداء.. لعله يأتي اليوم الذي يحل فيه السلام ويعم فيه الحب، وعندها أقدم روايتك على أنها حكاية من الزمن الجميل!

***

# الفصل الأخير

المكرم الأستاذ سلمان الخاسر

بعد التحية

باختصار شديد روايتك (السعودية والهندي) أنت سرقتها مني بنصها ولن أتركك تحصد نتيجة جهدي وفكري مالا وشهرة. أرجو أن نجد حلا مناسبا قبل أن أرفع الأمر إلى الجهات المختصة.

**الروائية: رحيق الصبار**

تلقيت هذه الرسالة الإلكترونية وكأنني كنت في حاجة إلى المزيد من التشتيت الذهني والقلق الفكري، وكأن العزلة التي اخترتها لنفسي كانت في حاجة لمن يقتحمها.. لو كان بي قدرة على اللجوء للجهات المختصة لما تركت حمدي يشوه مسيرتي الثقافية، ويجعلني أعيش في حيرة من أمري طوال عام كامل..

**الفاضلة رحيق الصبار**

**تحية طيبة وبعد**

**عجبت أشد العجب لادعائك بأنني سرقت روايتك وأنا الذي لم أعرفك حتى الآن، ولم أقرأ لك حرفا من قبل، فكيف لي أن أسرقك؟**

**سلمان الخاسر**

وهكذا تبادلنا الرسائل أنا ورحيق الصبار لفترة ليست قصيرة.. لم تضف لمطلبها الأول وهو إيجاد حل مناسب. وأنا أطلب منها تزويدي بما يثبت ادعاءها، لكنها ترد في كل مرة بأن المستندات ستقدم للجهات المختصة عندما لا يجدي الحل الودي. أحاذر أن أسألها عن الحل الذي تريده فأشعرها بضعف موقفي؛ لا سيما أنني لا أملك الدليل الكافي على ملكية هذا العمل، فالفسح المبدئي الذي أملكه هو لعمل آخر بعيد كل البعد عن النص موضع الخلاف..

رجعت لنفسي وحدثتها: ألا يمكن أن تكون رحيق الصبار كاتبة مشهورة اختارت هذا الاسم الرمزي تلافيا للإحراج الذي وقعتُ فيه؟! ولم لا تكون رواية (السعودية والهندي) لها؟ وأن

حمدي النصاب هو من سرقها منها؟ وهل لدي ما يثبت أنني كاتب الرواية؟ إذا كنت لا أستطع أن أثبت أنها روايتي فمن غير شك أنني لا أستطيع نفي تهمة السرقة عني، فحمدي ليس عنده ضمير حتى يعترف أنه سرق العمل منها، وليس عنده مانع أن يقف مع رحيق الصبار ضدي!..

بعد أخذ ورد طلبتْ مني مبلغا ماليا زهيدا مقابل التراجع عن رفع قضية، وهذا ما رجح لي عدم صدق دعواها، وأن هدفها ليس سوى ابتزاز مالي..

ووجدتني أسأل نفسي: لم لا أرسل لحمدي فأستفسر منه؟ أليس هو المسؤول عن الرواية هو وفريق عمله؟ أرسلت له رسالة إلكترونية أسأله فيها عن الكاتب الحقيقي للرواية، وأعلمه بوصول رسالة من مؤلفها - دون أن أذكر اسمه - يهدد برفع قضية ضدي بتهمة سرقة عمله الإبداعي..

كعادته يفضل حمدي الاتصال بالهاتف؛ ربما تحسبا لحفظ ما يدينه من وثائق ومستندات ساعة التقاضي، وليس حبا للثرثرة فحسب! اتصل بي هاتفيا وبين لي أن فريقه هو من غيّر في روايتي ولم يكتبها.. وأصررت على موقفي بأن الرواية غيرت بالكامل وليس تحريفا أو تغييرا يسيرا..

عندها قال: استفدنا من روايتك الفكرة الرئيسة، لكن كثيرا من التفاصيل استقيناها من رواية لروائية مبتدئة اسمها رحيق الصبار. وقد اشترينا منها الرواية الهزيلة التي كتبتها ودفعنا لها ثمنها فورا.. وأظنها عادت لك بعد أن يئست من مطالبتنا.. عموما لا تخش شيئا ولا تعرها اهتماما..

أشعرتني رحيق الصبار بأنها رفعت لوزارة الثقافة قضية ضدي بتهمة سرقة جهدها وأن علي انتظار استدعائي للتحقيق معي.. ومرت بضعة أشهر وأنا في قلق الانتظار، ولم أتلق رسائل منها ولا إشعارا من الوزارة باستدعائي.. تبين لي عن طريق أصدقائي الذين لهم صلة بالوزارة أن الوزارة قد نظرت في القضية، وطالبت المدعية بما يثبت ملكيتها للعمل المسروق، لم يكن عندها إلا رسالتها لحمدي وبرفقها مسودة الرواية.. وحين طلب المحقق عقد النشر تبين أنه عقد بيع وشراء وليس عقد نشر، وبما أنها باعت عملها فلم يعد ملكا لها.. كما اتضح من التحقيقات والاتصال باتحاد الناشرين في مصر أن الدار غير مرخصة، ولهذا السبب تم منع صاحبها من المشاركة في معرض الرياض!

ليتني مضيت في رفع دعوى على الناشر النصاب منذ البداية، فمهما كانت النتائج فلن تكون أسوأ من أكون شريكا في جريمة سرقة جهد الآخرين ونسبته إليّ زورا، وجريمة الإسهام في تدمير الثقافة والأدب!

تمثلت بقول قيس بن ذريح:

ندمت على ما كان مني ندامة

كما يندم المغبون حين يبيع

ووجدتني أبحث عن رحلة جديدة لجزيرتي نفسها، لكن هذه المرة عن طريق الفرصة الأخيرة Last minute

أرسلت لألفونسو أعلمه بموعد رحلتي القادمة، وأرسلت رسالة عبر الواتس أب لرامونا- التي انقطعت أخبارها عني بعد مطار برشلونة - أبلغها بأني سأمضي ثلاثة أيام في إبيزا قبل رحلتي البحرية..

تمت

## صدر للمؤلف

### في اللغة العربية:

- الأصوات العربية وتدريسها لغير الناطقين بها من الراشدين – مكتبة الطالب الجامعي بمكة المكرمة 1985.
- مقررات اللغة العربية للمعاهد الثانوية التابعة للمؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني بالمملكة العربية السعودية (تسعة مقررات) – مؤلف مشارك 1997–1999

### في الأدب:

- شاعر هذيل والمتحدث الرسمي باسم القبيلة – دراسة لسيرة أبي ذؤيب الهذلي من خلال شعره – دار مبين للنشر والتوزيع – الرياض 1994
- لكل شاعر حكاية – ملامح من حياة عدد من الشعراء على مر العصور – دار الرمك للنشر – جدة 2012
- نزهة في شواطئ الإبداع – مطالعات في بعض الإصدارات الحديثة (تحت الطبع)

### الدواوين الشعرية:

- مداد من غيوم – دار الرمك للنشر – جدة 2012
- أيقونة شعري – دار الرمك للنشر – جدة 2013
- شمس تأذَّن بالرحيل – نادي الطائف الأدبي ومؤسسة الانتشار العربي – بيروت 2014
- الغصن الندي – مجموعة قصائد ترجمها للإنجليزية الشاعر والمترجم نزار سرطاوي صدرت عن رابطة الكتاب الأردنيين 2014 بعنوان The Bedewed Bough

- كأن شيئا لم يكن – قلم الخيّال للنشر والتوزيع – الرياض 2016
- سيسأل الليل عنها – دار السكرية للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة 2017

**في الخواطر:**

- حديث الشفق – نادي القصيم الأدبي ومؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر – القاهرة 2013
- طعم الورد – توقيعات معاصرة (تحت الطبع)

**في أدب الرحلة:**

- من سحر المشرق وفن المغرب – نادي الرياض الأدبي والمركز العربي الثقافي – بيروت والدار البيضاء 2014
- بكالوريوس تربية يمنية – نادي الأحساء الأدبي 2017

**في الرواية:**

- أحجار في قارعة الطريق – مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر – القاهرة 2015

---

**للتواصل مع المؤلف**

00966540747544

E-mail : samghsa11@gmail.com

https://www.facebook.com/saad.alghoraiby

https://twitter.com/SAlghraiby

---